

إتحاف الأنام
بعجائب وأسرار
بيت الله الحرام



اسم الكتاب: إتحاف الأنام بعجائب وأسرار بيت الله الحرام

تأليف الأخ : موفق بن أحمد بن علي الفاضلي

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٩٨٩٩.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ١٤٦ .

القياس: ٢٤X١٧.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف: الأستاذ / عادل المسلماني

محفوظ
جميع الحقوق

٢٠٢١

الإدارة

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٤٩٦

دار الإيمان
للطباعة والنشر والتوزيع

المبيعات

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

دار الفقه
للطباعة والنشر والتوزيع

dar_aleman@hotmail.com

E-mail

دار الإيمان المتحدة

أمام مستشفى الصوفى - أسفل مدارس اليمن الحديثة

مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة زمار

جوال : ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

إتحاف الأنام بعجائب وأسرار بيت الله الحرام

تأليف

أبي عبد الرحمن

موفق بن أحمد بن علي الفاضلي

تقديم الشيخ الفاضل /

أبي محمد عبد الحميد الحجوري الزعكري

والشيخ الفاضل /

أبي اليمان عدنان المصقري

والشيخ الفاضل /

أبي عبد الله طارق الخياط البعداني

دار الأيمان
الإشكندرية

دار القيمة
الإشكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة الشيخ طارق البعداني - حفظه الله -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم وآله وصحبه أجمعين أما بعد :

فقد قرأت رسالة أخينا في الله الشيخ الفاضل أبي عبد الرحمن مرفوعة به أحمد بن محمد الفاضلي العودي حفظه الله المسماة بـ (اتحاف الأنام ببغائب وأسرار بيت الله الحرام) وقد اقتصرت على ما يشاء واختار ما كان لهم الحيرة سبحانه وتعالى عما يشركون، وجعل مكة مكاناً مشرفاً ومرفقاً باختيار البيت الحرام فيها وجعل أفئدة الناس تهوي إليه فتسأل الله أن يحفظ هذا البيت على مر الأيام والسنين وأنه يزيقنا الحج والعمرة فيه مراراً ونفع به الإسلام والمسلمين وعصمه من الفتن ما ظهر منها وما بطنه

كتبه أبو عبد الله / طارق بن محمد بن عبد الله الحياضي -

اليم - مدينة باب - مركز الفاروق

الـ ٩٩ / ذي القعدة ١٤٤١ هـ

٢٤٩

حفظه الله ونعم الوكيل
١٤٩١ / ١١ / ٩٩
طارق بن محمد الحياضي



مقدمة الشيخ طارق البعداني - حفظه الله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد قرأت رسالة أخي في الله الشيخ الفاضل أبي عبد الرحمن موفق بن أحمد بن علي الفاضلي العودي حفظه الله المسماة بـ «إتحاف الأنام بعجائب وأسرار بيت الله الحرام» وقد اختص الله بيته على سائر الأماكن كما ذكر ربنا جلَّ وعَلَا: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٦٨] القصص: ٦٨].

وجعل مكة مكاناً مشرفاً وشرفها باختيار البيت الحرام فيها، وجعل أفئدة من الناس تهوي إليه، فنسأل الله أن يحفظ هذا البيت على مر الأيام والسنين، وأن يرزقنا الحج والعمرة فيه مراراً وتكراراً، وجزى الله خيراً أئمة موفّقاً على ما جمعه في ذلك ونفع به الإسلام والمسلمين، وعصمه من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

كتبه أبو عبد الله

طارق بن محمد بن عبده الخياط.

اليمن مدينة إب مركز الفاروق

الاثنين ٢٩/ من ذي القعدة ١٤٤١هـ

(١) هذا من حسن ظن الشيخ طارق حفظه الله وتشجيعه لنا، وإلا فلو صدق علينا أننا طلاب علم لكننا في نعمة عظيمة.



مقدمة الشيخ عبد الحميد الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ -

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أما بعد
فقد طالع رسالة = اتحاف الأنام بعجائب وأسرار البيت الحرام
لأخي أبي عبد الرحمن صوفيه أحمد بن علي الفظلي فرائد كرامه
طيبة في جلتها تكلم فيها المؤلف سدهم غزير عن معجزة
ما يتعلق بالبيت الحرام البيت العتيق الذي تالاه عز وجل
في شأنه = وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناء
وما كان من حزن ومن = إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة
وهذه العائنة من آيات من مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً
وله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً = وشأن
هذا البيت عظيم وقد ألقى في شأنه المطهرات والتمطرات
مخزاً له المؤلف حينئذ على هذه اللغة والمشاركة
وأنا لله أن نفع به رباً وله الموفق

عبد الحميد بن الحجوري الزمكري

٧/ الحزم ١٤٤١

والحسين بن عبد الصافي بالقيصة



مقدمة الشيخ عبد الحميد الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أما بعد :

فقد طالعت رسالة «إتحاف الأنام بعجائب وأسرار المسجد الحرام» لأخيना أبي عبد الرحمن موفق بن أحمد بن علي الفاضلي فرأيتها رسالة طيبة في جملتها تكلم فيها المؤلف سده الله عز وجل عن مهمات ما يتعلق بالبيت الحرام، البيت العتيق الذي قال الله عز وجل في شأنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۚ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦﴾ فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧] ، وشأن هذا البيت عظيم، وقد ألف في شأنه المطولات والمختصرات، فجزى الله المؤلف خيراً على هذه اللفتة والمشاركة وأسأل الله أن ينفع به وبها والله الموفق.

عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

٧/ ذوالحجّة ١٤٤١هـ

دار الحديث بمسجد الصحابة بالغيضة



مقدمة الشيخ عدنان المصقري - حفظه الله -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أما بعد:

فإن أخانا الفاضل اللبيب والكاتب الأديب موفقاً بن أحمد الفاضلي وفقه الله ورعاه قد بذل جهداً طيباً في جمع ما تفرق مما صح من الفوائد والفرائد مما يتعلق بالبيت الحرام والكعبة المشرفة.

فنسأل الله أن يجزي أخانا موفقاً خيراً، وأن يبارك في جهوده وأن يثبتنا وإياه على العلم والسنة.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

أبو اليمان

عدنان بن حسين المصقري

الأربعاء ١/ ذوالحجّة ١٤٤١هـ





المقدمة

الحمد لله العلي العظيم، العزيز الكريم، الرؤوف الرحيم، محيي العظام وهي رميم، الذي بسط الأرض ورفع السماوات، ودانت له جميع المخلوقات، وسبّحت بحمده الجمادات وعظمته جميع الكائنات، وعنت له كل البريات.

الحمد لله منزل الكتاب، ومنشئ السحاب، وهازم الأحزاب، الذي يقبل توبة من تاب، ويتجاوز عن سيئات من أناب.

الحمد لله الذي منّ علينا فهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، منّ علينا فأفضل، وأعطانا فأجزل، فله المنّة والفضل.

الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

الحمد لله الذي هيا لنا البيت الحرام، وجعله من الشعائر العظام، وكفارة من الذنوب والآثام، وجعل زيارته مفرعا للأنام، وقربة إلى العزيز العلام.

أما بعد:

فيقول رب العزة والجلال في محكم التنزيل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]

فإن الله تعالى خلق أعيانا وأزمنة وأمكنة، ففضل بعضها على بعض، وأختار بعضها على بعض، فأختار من الأماكن المساجد، وفضلها على سائر البقاع، وجعلها أحب البلاد إليه، ورتب على لزومها وتعاهدها أجورا كثيرة، وجعل أهلها وعمارها أفضل الخلق وأتقى الناس، ثم اختار من بين هذه المساجد



عجائب وأسرار

المسجد الحرام، فعظمه وشرفه وكرمه واختاره على سائر المساجد، وجعله مهبط الوحي، ومنبع الرسالة، ومبعث النبوة، وجعل فيه قبلة المسلمين، يتوجهون إليها في صلاتهم ودعائهم في مشارق الأرض ومغاربها، وجعل زيارته فريضة واجبة على كل مسلم في العمر مرة واحدة من استطاع إلى ذلك سبيلاً، وما زاد فهو نافلة مستحبة، ورتب على العبادات فيه أجوراً عظيمة، فجعل الصلاة فيه أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه، وجعل الحج والعمرة فيه من أعظم المكفرات، وطهرة من سائر المعاصي والسيئات، ومن أسباب الخير والبركات، وجعل في قلوب العباد محبةً للبيت، وحنيناً إليه، واشتياقاً لزيارته، كما سيأتي ذلك في طيات هذه الرسالة.

فأكرم به من مكان!، وأعظم به من بيت!، وأشرف به من مسجد!.

فما أعظمه! وما أكرمَه! وما أطهرَه!.

وفي هذه الرسالة القصيرة عزمت وأحببت أن أتطرق إلى أهم العجائب والأسرار في هذا البيت العتيق، راجياً المولى جلَّ وعَلا أن يوفقني لذلك، وأن يسدّني فيما أذكره وأكتبه في عجائبه وأسراره، لعل ذلك يكون حافزاً ودافعاً للقارئ لزيارة البيت الحرام، لاسيما وكثير من المسلمين في غفلة عن عظمة هذا البيت، وفي جهل عما أودع الله فيه من الخصائص والمزايا والعجائب، فإذا قرأ القارئ شيئاً من ذلك ربما يشترك لزيارته، فإذا زاره يتعاهده بالزيارات بين الحين والآخر.

ولست في صدد ذكر أحكام البيت الحرام، فقد ألفت في ذلك المؤلفات الكثيرة، ما بين مطولة وقصيرة، ولكن مقصودي ما أشرت إليه آنفاً، وربما أتطرق إلى ذكر بعض فضائله عند الحاجة، فقد أذكر شيئاً منها في ضمن الكلام، مما يزيد القارئ حباً للبيت واشتياقاً لزيارته، وإلا فاستقصاء ذكر فضائله يحتاج إلى مجلدات، فأعرضت عن ذلك، وعن ذكر الأحكام تجنباً للإطالة، إلا



إذا استدعى الأمر للحاجة قد أتطرق لذكر بعضها. وقد أحببت أن تكون هذه الرسالة قصيرة، ليسهل حملها واقتناؤها وقراءتها.

تنبيه:

أكثر الكلام سيكون حول البيت الحرام والمسجد الحرام ولا شك أن الكعبة داخله في ذلك، بل هي البيت الحرام نفسه كما قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

فالله أسأل أن ينفعني بها والمسلمين فهو المستعان وعليه التكلان ومنه التوفيق والسداد والحمد لله رب العالمين.

سبب تأليف الرسالة :

إنه في يوم الخميس الموافق ٢١ / من جمادى الأولى لعام ١٤٤١ من الهجرة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم -، أنعم الله علي بنعمة عظيمة، إذ يسر لي بفضله وكرمه بعُمْرَةٍ وزيارة لبيته الحرام، وكانت أول زيارة، الأمر الذي أثار استعجابي في شأن هذا المكان المبارك، فرأيت من عظمة هذا البيت ما جعلني أعزم على كتابة هذه الرسالة، ولاشك أننا نسمع ونقرأ في كتاب الله وسُنَّة رسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وكلام أهل العلم عن عظمة هذا البيت العظيم، وعجائبه، وفضائله، لكن ليس الخبر كالمعاينة وما راءٍ كما سمع.

فإننا سمعنا وعلمنا عن شأن المسجد الحرام علم اليقين، ولما رأيناه رأينا العين بلغنا عين اليقين وهي الرؤية البصرية، ولما دخلناه وأدبنا مناسك العمرة ولمسنا ما أودع الله فيه من السكينة والطمأنينة، ورأينا إقبال الناس عليه بلغنا حق اليقين، وهي الرؤية القلبية، فهذه ثلاث مراتب أدناها علم اليقين وأوسطها عين اليقين وأعلاها حق اليقين.



فإن المؤمن إذا سمع عن الجنة صار عنده علم اليقين، فإذا رآها بلغ عين اليقين، فإذا دخل الجنة بلغ أعلى المراتب وهي حق اليقين، ومن أمثال ذلك لما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنة كما رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا رَأَيْتَ؟، قَالَ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

قال الملا نور الدين القاري في جمع الوسائل في شرح الشرائع: «فَجَمَعَ لَهُ -تَعَالَى- بَيْنَ عِلْمِ الْيَقِينِ، وَعَيْنِ الْيَقِينِ، بَلْ جَمَعَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ حَقَّ الْيَقِينِ». اهـ.

مثال آخر: إن العبد يعلم عن حقيقة الموت علم اليقين، فإذا رأى الميت ينزع السكرات بلغ عين اليقين، فإذا جاءه الموت وعانى من سكرات الموت بلغ حق اليقين، وهلم جرا.

الشاهد أن الذي يسمع ويقرأ عن البيت الحرام ليس كمن يراه ويدخله ويتعبد لله فيه، فهذا هو الذي دفعني إلى كتابة هذه الرسالة، ولم أستقصي كل عجائب وأسرار هذا البيت، وإنما أوردت فيها أهم ما لاحظته أثناء عمرك من العجائب والأسرار، ولم أتطرق إلى العجائب والأسرار المتعلقة بمناسك الحج والأمكنة المتعلقة بها، ولعل الله ييسر بأداء فريضة الحج ومن حينها نكمل الموضوع إن شاء الله تعالى.

فأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعل هذه الرسالة نافعة لكل من قرأها، وأن يجعلها دافعة لكل من لم يزربته الحرام إلى زيارته، وأن ينفع بها الإسلام والمسلمين، وأن يجعلها في موازين الكاتب والناشر والقارئ، إنه جواد كريم، بر رحيم، رؤوف حلیم، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف



قصيدة بعنوان

(الشوق العميق إلى بيت الله العتيق)

يا مكة الغراء يا أم القرى
يا مكة الغراء سالت أدمعي
يا أيها البلد الأمين تحية
يا لائمي في حب مكة لا تلم
أنا لست مشتاقاً لنيل مطاعم
أنا لست مشتاقاً إلى أبراجها
بل شوقنا لعبادة الرحمن في
شوقاً لبيت الله جل جلاله
شوقاً لحج البيت طوبى للذي
طوبى لمن قد بات ليلاً في منى
وأتى المشاعر كلها متضرعاً
وأفاض من عرفات بعد وقوفه
وكأنني بالوفد قد جاءوا إلى
يا من إليك تتوق أفئدة الورى
شوقاً إليك وبلت العين الشرى
ما هل في الأفق الهلال وأقمر
إني أراي في الغرام مقصراً
ومشارب فيها وألوان القرى
ومتاجر فيها لبيع أو شراء
خير البقاع وخير بيت طهراً
طوبى لمن للبيت قد جد السرى
قد حج في البيت الحرام وكبراً
ورمى وحج بلا فسوق أو مرا
وملبياً ومهللاً ومكبراً
متأسياً بنبينا خير الورى
تيك البقاع ودمعهم منهم جرى



طَافُوا وَصَلُّوا بَعْدَ مَا قَدْ أَحْرَمُوا وَسَعَوْا وَأُمُّوا زَمَزَمًا نِعَمَ الْقَرَى
وَأَفَاضُوا يَوْمَ النَحْرِ ثُمَّ تَحَلَّلُوا فَتَرَى الْحَجِيجَ مُحَلَّقًا وَمُقَصِّرًا
يَا رَبِّ أَنْتَ صَحَبْتَهُمْ وَأَعْتَتَهُمْ وَجَعَلْتَ كُلَّ صِعَابِهِمْ مُتَيِّسِرًا
يَسِّرْ لَنَا حَجًّا وَسَهِّلْ أَمْرَنَا يَا خَيْرَ مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ وَأَبْصَرَ
يَا مَكَّةَ الْغُرَاءَ هَذِهِ أَحْرُفِي قَدْ صُعْتُهَا شَوْقًا إِلَى أُمِّ الْقَرَى
يَا مَكَّةَ الْغُرَاءَ دُونَكَ أَحْرُفًا يَشْدُو الْخَطِيبُ بِهَا وَيَرْقَى الْمُنْبَرَا
وَصَلَاةُ رَبِّي تَبْلُغُ الْمُخْتَارَ مَا حَجَّ الْحَجِيجُ الْبَيْتَ أَوْ رَكَّبَ سَرَى

للشاعر السلفي

جميل المليكي حفظه الله -

١٨ / ذو القعدة / ١٤٢٩ هـ

معاني بعض الكلمات:

- * الغراء: البيضاء.
- * الغرام: هو الحب اللازم.
- * القرى: وهو الضيافة.
- * السرى: وهو سير الليل.
- * أو مرا: الجدل.
- * أموا: قصدوا.
- * يشدو: يُقال شدا بصوته شدوا مدّه بغناء أو غيره.
- * ركب سرى: سار في الليل.



عظمة رب البيت

إن بيت الله الحرام آية من آيات الله في أرضه، وهو أثر من بدائع خلقه، وعجائب قدرته، و علامة لعظمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن كل عظيم في الوجود يدل على عظمة موجدته وخالقه، ولهذا حثنا الله تعالى في كتابه على التفكير في مخلوقاته التي تدل على عظمته، فإن الذي يتفكر في السماوات وما أجرى الله فيها من مخلوقات عظيمة، كالشمس والقمر والنجوم والكواكب، وما أجرى فيها من السحب والشهب وإنزال المطر، يجد أنها بعظمتها تدل على عظمة فاطرها ومسخرها سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإن الذي ينظر في هذه الأرض الضخمة، وما أرسى فيها من الجبال الراسية، وأجرى فيها من البحار الزاخرة، والأنهار الجارية، والأشجار المخضرة، والأحجار الصلبة، والسهول الممتدة، والوديان الواسعة، يرى أنها تدل على عظمة الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا أقسم الله بكثير من مخلوقاته العظيمة التي تدل على عظمته، كالشمس والقمر والنجوم والكواكب ونحو ذلك، فكل عظيم يدل على عظمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك هذا البيت العظيم من أدل الأدلة على عظمة المولى جَلَّ وَعَلَا.

وكما قال الأعرابي صاحب الفطرة السليمة « أثر السير يدل على المسير، والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا تدل على العليم الخبير » ١.هـ

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٣٧)



عجائب وأسرار

ومع عظمتها وضخامتها فإنها تعظم الله تعالى وتسجد له وتسبحه، واستكبر عن ذلك كثير من الناس وقد فضل الله الإنسان على سائر المخلوقات، إلا من عصى فهو أضل من الأنعام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيوُا ظِلَلَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [٤٨] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [٤٩] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠].

وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [١] [الصف: ١].

ألا فإن من أعظم مخلوقات الله في الأرض الدالة على عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ المسجد الحرام بما فيه الكعبة المشرفة وغيرها من المشاعر العظيمة المتعلقة بها. فمن تعظيم الله تعالى تعظيم بيته الحرام، فإن من كان في قلبه تعظيم للبيت الحرام فإنه معظم لله تعالى من باب أولى؛ لأن الله هو الذي سخر هذا البيت وأوجده، وشرع فيه تلك الشعائر العظام، وما إقبال الناس على البيت الحرام وتعظيمه ومحبته إلا استجابة لله تعالى، وتعظيماً له، وامتنالاً لأمره، وطلباً لثوابه، وخوفاً من عقابه



عظمة البيت

إن من أسرار هذا البيت وعجائبه أن الله تعالى أودع تعظيمه في قلب كل مسلم، حتى إن كثيراً من الكفار ليعظمونه وربما كان سبباً في إسلام كثير منهم، بل كان الكفار في الجاهلية يعظمون البيت، ومن تعظيمهم له أن أحدهم كان يرى قاتل أبيه في المسجد الحرام فلا يأخذ بثأره.

قال العلامة ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (١/ ٤١٣): «ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً، من دخله آمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يَعرُض له». ١. هـ.

وقال العلامة السعدي - رَحِمَهُ اللهُ - (١/ ٦٥): «ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ -، وهو هذا البيت الحرام، الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ أي: مرجعاً يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه، ولا يقضون منه وطراً، جعله ﴿وَأَمْناً﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم، فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمة وتعظيماً، وتشريفاً وتكريماً». ١. هـ.



عجائب وأسرار

فحري بالمسلمين أن يعظموا هذا البيت ويحترموه من باب أولى، ولهذا سمي بالبيت الحرام.

قال العلامة البغوي - رَحِمَهُ اللهُ - (٣/ ١٠٤): «وسمي البيت الحرام لأن الله تعالى حرمه وعظم حرمة قال النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): «إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض» (١) ١هـ.

فما من مسلم صادق محب للبيت الحرام إلا وهو يتمنى زيارته، ويتمنى لقاءه ويدعو الله أن يبلغه إياه، حتى عصاة المسلمين، فكيف بصالحهم؟ فإن قلوبهم مشتاقة لزيارته، وأكبادهم محترقة على فراقه، ولا يرغب عنه إلا منافق ملحد أو جاهل، وأما من وفقه الله لزيارته فحدث ولا حرج، فإن بعضهم يبكي فرحاً، أو يسجد لله شكراً، ويحمد الله على تيسير السفر إليه، فلا يريد مفارقه لما يرى من عظمته والسكينة والطمأنينة فيه، فما إن يرى الكعبة المشرفة إلا وكاد قلبه يطير شوقاً إليها فيسارع في الطواف حولها وعيناه تنهمر من الدموع، يبكي من خشية الله، وقلبه مطمئن بذكر الله، خاشع من تعظيم الله، ويرى العجائب من إقبال الناس على البيت، وازدحامهم عنده من كل فج عميق، يطوفون حوله، ويكون رافعي أيديهم إلى السماء، يدعون الله ويتضرعون إليه، فيطلبون مغفرته، ويبتغون ثوابه، ويريدون جنته، ويخافون من عذابه، ويستجيرون من ناره، فيهم العربي وفيهم الأعجمي، وفيهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، فيهم الصحيح وفيهم السقيم، وفيهم من يطوف على العربات، ومنهم من يطوف على ركبتيه أو إتيته ماذا يريد هؤلاء؟

إنهم مقبلون على الرحيم الرحمن، الكريم المنان، الذي من دعاه أجابه، ومن استغفره غفر له، ومن استجار به أجاره، ومن قصده بلغه مراده وأعطاه مناه.

(١) والحديث في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



فكيف وهم في خير الأماكن؟ وفي خير البلاد؟ وفي أعظم المساجد؟ فحري أن يتقبلهم ولا يطردهم، ويرحمهم ولا يعذبهم، وقد وعدهم ولن يخلف ميعاده لهم، وهو القائل في كتابه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)، وما جاءوا إلى هذا المكان إلا استجابة لأمره، وتعظيماً لبيته، وهذا من أعظم خصال التقوى قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢).

فمن عظمة البيت الحرام أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) كان يقسم بالله متوسلاً بربوبيته للكعبة، ففي الصحيحين عن أبي ذر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: «هم الأخسرون ورب الكعبة».

ومن عظمة البيت: أن الأعمال الصالحة فيه مباركة، والأجور المترتبة عليه مضاعفة، فإن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه، لما روى ابن ماجه وغيره عن جابر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي، أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ». صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١١٥٥).

وكلما كانت العبادة قريبة من الكعبة كانت أفضل لفضل الكعبة وفضل القرب منها، ومن المعلوم شرعاً فضل الصفوف الأولى في سائر المساجد، وهو في الكعبة المشرفة من باب أولى وأحرى.

وبالمقابل فإن الإحداث والمعاصي فيه أشد إثماً وأقبح جرماً، وأسرع انتقاماً، فإنه بمجرد عزم العبد وإرادته على الإلحاد والظلم فيه تحل به العقوبة، فكيف بمن باشر الإلحاد والظلم؟ حري بأن ينتقم الله منه.



عجائب وأسرار

قال تعالى متوعداً للمحدثين في بيت الله الحرام والصادقين عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُظْلَمِ نُذْقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في تفسيره - (١ / ٥٣٦): « يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضاً عن المسجد الحرام، الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارئ إليه، بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمة واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله، ومنع من يريده بزيارة، فما ظنكم أن يفعل الله بهم؟ » . اهـ.

ولعل من الحكم في عدم إجزاء النيابة في الحج والعمرة عن الحي؛ لأجل أن يقوم بأداء المناسك بنفسه، ويرى عظمة البيت وعجائبه، فيزداد إيمانه برؤيته وحب له، فقد جعل الله مجرد الذهاب إليه عبادة مستقلة بنفسها، فكيف برؤيته، والطواف حوله، وأداء المناسك عنده؟!، أما العاجز والميت فقد فرغ منها، فيجوز الاستنابة في الحج والعمرة عنهما، لتعذر حضورهما والله أعلم.



زيارة البيت وتعظيمه فيه قوام الدنيا والدين:

ومن بركة البيت أن بزيارته وتعظيمه تقوم الدنيا والدين، ويرفع الله بحجه الشرور:

قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١ / ٢٤٤): «يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ جَعَلَ ﴿الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ يَقُومُ بِالْقِيَامِ بِتَعْظِيمِهِ دِينُهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، فَبِذَلِكَ يَتِمُّ إِسْلَامُهُمْ، وَبِهِ تَحْتَ أَوْزَارِهِمْ، وَتَحْصِلُ لَهُمْ - بِقَصْدِهِ - الْعَطَايَا الْجَزِيلَةُ، وَالْإِحْسَانُ الْكَثِيرُ، وَبِسَبَبِهِ تَنْفَقُ الْأَمْوَالُ، وَتَتَقَحَّمُ - مِنْ أَجْلِهِ - الْأَهْوَالُ.

ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية » اهـ.

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (١ / ٤١٣): «أَيُّ: يُرْفَعُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ تَعْظِيمِهَا السُّوءُ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَوْ لَمْ يَحْجِ النَّاسُ هَذَا الْبَيْتَ لَأَطْبَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ عَلَى الْأَرْضِ» ١. اهـ.





تعظيم الله ورسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للبيت

ومن عظمة البيت أن الله تعالى عظمه وشرفه، وأضافه إلى نفسه الكريمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦) وهذه إضافة تشريف وتعظيم.

وعند التأمل فإن كل آية متعلقة بالبيت الحرام فهي دالة على عظمة البيت، وداعية إلى تعظيمه، وكيفيه تعظيماً وتشريفاً أن الله تعالى أضافه إلى نفسه وجعله بيته وسماه بالبيت الحرام.

وقد عظم البيت رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فتعجب من طيبه وعظمته وحرمة، فقد روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، وَيَقُولُ: «مَا أَطْيَبُكَ وَأَطْيَبَ رِيحُكَ، مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، حُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ حُرْمَةً مِنْكَ، مَالِهِ وَدَمِهِ».

ومن تعظيم رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للكعبة معاهدته لها بالإكثار من زيارتها والطواف حولها والصلاة عندها، وغير ذلك من العبادات.

قصة الذبيح إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ :

لقد كان في قصص إبراهيم وابنه إسماعيل - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - العجب العجائب، والآيات المحيرة لأولي الألباب، وكان في قصة إبراهيم في فراق أهله، وذبح ولده، واستجابته لربه، العجائب العجيبة والحكم البليغة، والابتلاءات العظيمة التي لا يثبت عندها إلا نبي، فقد بلغ بإبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وإجلاله لربه واستجابته لأمره أن ابتلاه الله بولده وفلذة كبده ووحيده من صلبه



آنذاك، فأمر الله خليله بأن يذهب به وأمه إلى وادٍ غير ذي زرع، ولا سكنى فيه ولا ماء، ولا أنيس فيه ولا حياه، ثم يغادرهم ويتركهم ويكل أمرهم إلى الله، فرضيت هاجر - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وسلمت لأمر ربها، وأيقنت بأنه لن يضيعها، مادام أن الأمر أمره، والحكم حكمه، والله غالب على أمره، فعاشت وابنها في حفظ الله وكلاته، يراهم ويسمعهم، ويحفظهم ويرزقهم، حتى إذا ما كبر الولد وترعرع، وانتفع به الأب الحنون، إذا بالبلاء الأعظم، والأمر الأكبر الذي لا يصبر عليه إلا نبي أو رسول، ألا وهو الأمر بالفراق، وباليته الموت المكتوب على كل إنسان، ولكنه القتل على يد الأب نفسه بأشد أنواع القتل وهو الذبح، فامثل الأب لأمر ربه وأنقاد الولد طاعة لوالده واستجابة لأمر ربه، فشاور الوالد ولده لينظر في أمره، فثبَّت الولد أباه، وأمره بتنفيذ أمر ربه، فتبين صدق الخليل وابنه، وتقديم محابِّ الله على محابها، فصار قلب إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مملوءاً بحب الله لا يزاحمه شيء، ولذلك سماه الله خليلًا، والخلة هي أعلى درجات المحبة قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥).

فصار إبراهيم أحب عباد الله إليه بعد نبينا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فهما خليلاه وهما رسولاه رفع قدرهما وأعلا ذكرهما إلى أن تقوم الساعة، قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» رواه مسلم من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلما أنقادا لأمر الله، وأراد إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تمرير السكين على رقبة إسماعيل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إذا بالفرج يأتي من عند الله، وفداه الله بكبش عظيم، قال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِيَّيْكَ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَأَبَّيْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنِ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّابِرْهُمَا (١٠٤) قَدْ صَدَّقَتِ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ



بَجَزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَتُ الْآمِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ بَجَزَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ
مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١١١] .

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٧٠٥-٧٠٦): ﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلام
﴿مَعَهُ السَّعَى﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنا يكون في الغالب، أحب
ما يكون لوالديه، قد ذهب مشقته، وأقبلت منفعته، فقال له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ:
﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني
بذبحك، ورؤيا الأنبياء وحي ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإن أمر الله تعالى، لا
بد من تنفيذه، ﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده:
﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة
الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازما بقتل ابنه وثمره فؤاده،
امثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت
عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: تل إبراهيم إسماعيل
على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه، لئلا ينظر وقت الذبح إلى
وجهه.

﴿وَنَدَيْنَهُ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أَنْ يَتَابَرَهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾
قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا﴾ أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطنت نفسك على
ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ بَجَزَى
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.



﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿هُوَ الْبَلْتَأُ الْمُمِينُ﴾ (١٠٦) أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حبا شديدا، وهو خليل الرحمن، والخللة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحسوب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وُدّه ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدّم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتَأُ الْمُمِينُ﴾ (١٠٦) وَفَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيما من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانا وسُنّة إلى يوم القيامة». اهـ.

وقال المفسر ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (٢٧ / ٧): «قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أي: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه. وقد كان إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر في أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبّير، وعطاء الخراساني، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ يعني: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى﴾ قَالَ يَبْنِيْ إِيَّيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ إِيَّيَّ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿ قَالَ عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَبْنِيْ إِيَّيَّ أَرَى فِي الْمَنَامِ إِيَّيَّ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.



عجائب وأسرار

﴿ قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أي: امض لما أمرك الله من ذبحي، ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٠٢) أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، - صلوات الله وسلامه عليه - فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَذَكَرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٥٥) [مريم: ٥٤ - ٥٥].

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ (١٣) أي: فلما تشهدا وذكر الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾، [يعني]: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدي، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أي: صرعه على وجهه ليزبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾: أكبه على وجهه.

... وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٠٧) قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعي قبل ذلك أربعين خريفاً (أي أربعين سنة)، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلقته عندها، فجاء الجمرة الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلقته فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذي نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه في ميزاب الكعبة قد حشّ، يعني: ييس...



وقوله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَّاكَ بُخْرَى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح. وذكر السدي وغيره أنه أمر السكين على رقبتة فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ونودي إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا﴾ اهـ.

قصة هاجر وابنها - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - في ذلك الوادي:

كان من قصتهما أن إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وضعها وابنها وهو طفل صغير في ذلك المكان القاحل الذي ليس فيه ماء ولا مرعى ولا سكنى، ولكن أراد الله شيئاً كان مفعولاً، قال تعالى عن إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فوضع عندهما شيئاً من ماء وتمر، فأكلت وشربت وأرضعت طفلها، حتى نفذ ما عندها، فصار الطفل يبكي وكاد أن يموت، فقلقت الأم عليه، فكانت تذهب حتى تأتي الصفا تبحث عن ماء أو من يغيث ابنها، فيشتد بكاء الطفل ثم ترجع إلى ابنها، ثم تذهب إلى المروة، وهكذا صنعت ذلك سبع مرات، وكانت إذا مرت بالوادي تسعى - وهو الذي بين العلمين الأخضرين حالياً في المسعى - حتى سمعت صوت جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وقد جاء بالفرج من رب العالمين - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فقالت أغث إن كان عندك غوث، فضرب برجله الأرض، فنبع ماء مبارك جعله الله طعاماً وطعم وشفاء سقم إلى قيام الساعة، وهو المعروف بماء زمزم. فجاء أناس من جرهم فأحسوا بالماء في ذلك المكان، فاستأذنوا هاجر أن يقطنوا في ذلك المكان، فأذنت لهم وأحبت الأنس بهم واستبشرت بهم، فلما كبر إسماعيل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - تعلم منهم العربية وزوجوه،



ثم جاء إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بعد حين ينظر تركته، فأخبر ابنه أن الله أمره أن يبني الكعبة، فطلب منه المساعدة، فكان يناوله الحجارة فبنى الكعبة، وصار ذلك المكان أفضل بقاع الأرض، يتعبد الناس بزيارته ويطوفون به ويأتونه من كل فج عميق، بعد أن كان وادياً غير ذي زرع، ليس فيه حياة، وجعل الله الطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة من أفضل العبادات، بل فرضه الله على كل مسلم بسبب تلك الأسرة الطيبة المباركة، والشاهد من هذه القصة أن هاجر - عَلَيْهَا السَّلَامُ - هي أول من سنت السعي بين الصفا والمروة بسبب ما حصل لها من تلك الضائقة فأكرمها الله أن جعل عملها ذلك منسكاً يتداوله المسلمون إلى أن تقوم الساعة. فقد روى البخاري عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: « قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النَّسَاءُ الْمَنْطِقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مَنْطِقًا لَتَعْفِي أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ ثُمَّ جَاءَهَا إِبْرَاهِيمُ وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلُ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهَا هُنَالِكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جَرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسَقَاءٌ فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ مَنْطِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرَكُنَا هَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مَرَارًا، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: اللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَتْ: إِذَا لَا يُضِيْعُنَا، ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بَوَجهِ الْبَيْتِ ثُمَّ دَعَا بِهِؤْلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ مُبْرَكٍ الْمَحْرَمِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى ، أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ - فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتْ الصَّفاَ أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا



فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنْ الصِّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرْفَ دَرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِي ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا» فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَه، تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسَمِعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غَوَاثُ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ، فَجَعَلَتْ تَحْوِضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكْتَ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا» قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّايَةِ تَأْتِيهِ السُّيُوفُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ - مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءَ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهِذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا، أَوْ جَرِيَيْنِ فَإِذَا هُمُ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ، فَأَقْبَلُوا قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ؟ فَقَالَتْ نَعَمْ وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ، قَالُوا نَعَمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَانَ» فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أُبَيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ.

وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً



مِنْهُمْ وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكَنَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بَشَرٌ نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَانَهُ أَنْسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلْنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ، قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولَ: غَيْرُ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ ذَاكَ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَفَارِقَكَ، الْحَقِّي بِأَهْلِكَ فَطَلَقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدَ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قَالَ كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنْتُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ الْمَاءُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حُبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ» قَالَ: فَهَمَّا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بَغِيرَ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ وَمُرِّيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنْتُ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ، قَالَ فَأَوْصَاكَ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ ذَاكَ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعِ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتَعِينَنِي؟ قَالَ: وَأَعِينَكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا



بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) .

وفي رواية عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أيضا، قَالَ: «لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرِبُ مِنَ الشَّنَّةِ فَيَدْرُ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ فَاتَّبَعْتُهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلَغُوا كَدَاءً نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَرَكْنَا قَالَ إِلَى اللَّهِ قَالَتْ رَضِيتُ بِاللَّهِ قَالَ فَرَجَعَتْ فَجَعَلَتْ تَشْرِبُ مِنَ الشَّنَّةِ وَيَدْرُ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا حَتَّى لَمَّا فَنِيَ الْمَاءُ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسُ أَحَدًا قَالَ فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّافَا فَنَظَرَتْ وَنَظَرْتُ هَلْ تُحَسُّ أَحَدًا فَلَمْ تُحَسَّ أَحَدًا فَلَمَّا بَلَغَتْ الْوَادِي سَعَتْ وَآتَتْ الْمَرْوَةَ فَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ - تَعْنِي الصَّبِي - فَذَهَبَتْ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ كَأَنَّهُ يَنْشَعُ لِلْمَوْتِ فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسُ أَحَدًا فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّافَا فَنَظَرْتُ وَنَظَرْتُ فَلَمْ تُحَسَّ أَحَدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا ثُمَّ قَالَتْ لَوْ ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ فَإِذَا هِيَ بِصَوْتِ فَقَالَتْ أَغْثُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ فَإِذَا جَبْرِيلُ قَالَ فَقَالَ بَعْقِبِهِ هَكَذَا وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ قَالَ فَانْبَثَقَ الْمَاءُ فَذَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفَزُ قَالَ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ تَرَكَتُهُ كَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا» قَالَ فَجَعَلَتْ تَشْرِبُ مِنَ الْمَاءِ وَيَدْرُ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا قَالَ: فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ بَبْطُنِ الْوَادِي فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ كَانَهُمْ أَنْكَرُوا ذَاكَ وَقَالُوا مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا



عجائب وأسرار

هُم بِالْمَاءِ فَاتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ فَاتُوا إِلَيْهَا فَقَالُوا يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكَ ، أَوْ نَسْكُنَ مَعَكَ فَبَلَغَ ابْنُهَا فَتَكَحَّ فِيهِمْ امْرَأَةٌ قَالَتْ ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطْلَعٌ تَرَكَتِي قَالَ فَجَاءَ فَسَلَّمَ فَقَالَ أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ ذَهَبَ يَصِيدُ قَالَ قَوْلِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيْرُ عَتَبَةٍ بِابِكَ فَلَمَّا جَاءَ أَخْبَرَتْهُ قَالَتْ : أَنْتَ ذَاكَ فَادْهَبِي إِلَى أَهْلِكَ ، قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطْلَعٌ تَرَكَتِي ، قَالَ فَجَاءَ فَقَالَ : أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ ؟ فَقَالَتْ : امْرَأَتُهُ ذَهَبَ يَصِيدُ ، فَقَالَتْ أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ ؟ فَقَالَ : وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ ، قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ ، قَالَ فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ » قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطْلَعٌ تَرَكَتِي فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلًا لَهُ ، فَقَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا ، قَالَ أَطْعِ رَبَّكَ ، قَالَ إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ قَالَ إِذَا أَفْعَلْ ، أَوْ كَمَا قَالَ : قَالَ فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ بَيْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ ﴿ رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٢٧) قَالَ حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعَفَ الشَّيْخُ عَلَى نَقْلِ الْحِجَارَةِ فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ ﴿ رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٢٧) .

إرشاد الخليل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِلَى مَكَانِ الْبَيْتِ :

ذكر بعض أهل العلم أن موضع البيت كان قد خفي ودُرس من الغرق أيام الطوفان ، فصار مكانه غير معلوم فأرشد الله تعالى إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلى مكانه وأمره ببنائه .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (١٢٦) [الحج : ٢٦] .

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٥/ ٤١٣) : « هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير



الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴿الآية [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥) [البقرة: ١٢٥]. اهـ.

وقال السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٥٣٦/١): «يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسما من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنائه، فبناه على تقوى الله، وأسس على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئا، بأن يخلص لله أعماله، وبينه على اسم الله». اهـ.

وروى البخاري في قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : «... ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ وَتُعِينُنِي قَالَ فَأَعْيُنَكَ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ



عجائب وأسرار

فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحَجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا ثَبِّتْ لَنَا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) قَالَ فَجَعَلَا يَنْبِيَّانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا ثَبِّتْ لَنَا مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) .

الشاهد قوله: « فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَيَّ أَكْمَةً مُرْتَفَعَةً عَلَى مَا حَوْلَهَا »

قال العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الأسدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في أخبار الكرام (ص: ٩٠-٩١) عن مجاهد، إن موضع البيت كان قد خفي ودُرس من الغرق أيام الطوفان، فصار موضعه أكمة حمراء، مدرة لا تعلوها السيول، غير أن الناس يعلمون أن موضع البيت فيما هنالك ولا يثبتونه، وكان المظلوم يأتيه من أقطار الأرض ويدعو عنده فَقَلَّ أنه من دعا هنالك إلا استجيب له ... ». اهـ .

وعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أن الأنبياء كانوا يحجون ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله تعالى الخليل إبراهيم وأعلمه مكان البيت. انتهى

وفي معالم التنزيل للعلامة أبي محمد الحسين بن محمد البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ : قال الرواه: إن الله تعالى أمر إبراهيم بعدما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه ، فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه، فبعث الله السكينة لتدله على موضع البيت وهي ريح خجوج لها رأسان شبه الحية فأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة فتبعها إبراهيم حتى أتيا مكة فتطوت السكينة على موضع البيت كتطوي الحجة هذا قول علي والحسن .

وقال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : بعث الله تعالى سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وافق مكة ووقفت على موضع البيت فنودي منها إبراهيم أن ابن علي ظلها لا ترد ولا تنقص، وقيل: أرسل الله



جبريل ليدله على موضع البيت كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت فكان إبراهيم بينيه وإسماعيل يناوله الحجر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يعني أسسه واحدها قاعدة. وقال الكسائي: جدر البيت». اهـ.

وانظر ما تبقى من تفاصيل عدد بناء الكعبة في «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» (١/ ٢٨٤) فما بعده.

بناء إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ للبيت:

ذكر بعض أهل العلم أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من بنى الكعبة، وذكر بعضهم أن الملائكة هي أول من بنى البيت، وقيل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالله أعلم فليس هناك دليل يثبت ذا أو ذاك، فالمهم أن الله جل وعلا أخبر أن إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بنى الكعبة وابنه إسماعيل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كان يناوله الحجاره، وبعد فترة من الزمن أعادت قريش بناءها كما أخبر بذلك المصطفى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٥/ ٤١٣): «عند قوله تعالى ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وُضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس». قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ فِيهِ ءَايَتٌ بَيِّنَةٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴿الآية [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، وقال تعالى:



﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

﴿١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥] . اهـ

والقول بأن إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أول من بنى البيت فيه نظر، ويرد على هذا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ يدل على أن البيت كان موجوداً قبل ذلك، كما دل على ذلك حديث ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قصة وضع إبراهيم هاجر وإسماعيل - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - في ذلك الوادي، ومنها قوله: «فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهِؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾» وكان إسماعيل رضيلاً آنذاك، مما يدل على أن أصل البيت قد كان موجوداً في ذلك الوقت، ثم بعد حين جاء إبراهيم ورفع القواعد من البيت كما أخبرنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال ابن الجوزي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في زاد المسير - (٣٣ / ٤): «إِنْ قِيلَ: ما وجه قوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمدة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه .

أحدها: أن الله تعالى حَرَّمَ موضع البيت منذ خلق السموات والأرض، قاله ابن السائب .

والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يُرْفَعَ أيام الطوفان .

والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا، ذكرهما ابن جرير . وكان أبو سليمان الدمشقي يقول: ظاهر الكلام يدل على أن هذا الدعاء إنما كان بعد أن بُنِيَ البيت وصارت مكة بلداً . والمفسرون على



خلاف ما قال . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أن إبراهيم خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر ومعه جبريل حتى قدم مكة ، وبها ناس يقال لهم : العماليق ، خارجاً من مكة ، والبيت يومئذ ربوة حمراء ، فقال إبراهيم لجبريل : أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال : نعم؛ فأنزلهما في مكان من الحجر ، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشاً ، ثم قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ الآية . وفتح أهل الحجاز ، وأبو عمرو ياء «إني أسكنت» . اهـ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٢٨) [البقرة : ١٢٧ - ١٢٨] .

قال الطبري - رَحِمَهُ اللهُ - (٣ / ٦٤) في تفسير هذه الآية بعد أن ذكر خلافاً في أول من بنى البيت : «قال أبو جعفر : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر عن إبراهيم خليله أنه وابنه إسماعيل ، رفعاً القواعد من البيت الحرام . وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت كان أهبطه مع آدم ، فجعله مكان البيت الحرام الذي بمكة . وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء ، مما أنشأه الله من زبد الماء . وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درة أهبطا من السماء . وجائز أن يكون كان آدم بناه ثم انهدم ، حتى رفع قواعد إبراهيم وإسماعيل . ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي ، لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله وعن رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بالنقل المستفيض . ولا خبر بذلك تقوم به الحجة فيجب التسليم لها ، ولا هو - إذ لم يكن به خبر ، على ما وصفنا - مما يدل عليه بالاستدلال والمقاييس ، فيمثل بغيره ، ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد ، فلا قول في ذلك هو أولى بالصواب مما قلنا . والله تعالى أعلم» . اهـ .



وقال المفسر ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (٧٧/٢): «يُخْبَرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، أَي: لِعُمُومِ النَّاسِ، لِعِبَادَتِهِمْ وَتُسْكِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يَعْنِي: الْكَعْبَةُ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الَّذِي يَزْعُمُ كُلُّ مَنْ طَائَفَتِي النَّصَارَى وَالْيَهُودُ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحْجُونَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَنَادَى النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُبَارَكًا﴾ أَيُ وُضِعَ مُبَارَكًا ﴿وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ اهـ
إِذْنٌ مَعْنَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أَيُ لِلْعِبَادَةِ.

وروى البخاري في قصة بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يُبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ فَلَمَّا رَأَاهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ وَتُعِينَنِي قَالَ وَأَعِينُكَ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا نَقْبَلُ مِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) قَالَ فَجَعَلَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا نَقْبَلُ مِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧).

وفي رواية: «...ثُمَّ قَالَ يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ وَتُعِينَنِي قَالَ وَأَعِينُكَ قَالَ فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكْمَةِ مُرْتَفَعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا



نَقَبَلْ مِنَّْا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ قَالَ فَجَعَلَا يَنْبِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ ﴿رَبَّنَا نَقَبَلْ مِنَّْا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

فقد أمر الله نبيه وخليفه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبني البيت في ذلك المكان الطاهر وشرفه وابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ببنائه ودعا ملكة ولأهلها قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

حفظ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - للبيت؛

* ومن عجائب البيت أن الله تعالى حفظه من مكر الماكرين وكيد الكائدين، على مر السنين، فكل من أراد به سوء أهلكه الله، أو يرجع خائباً، ومنهم من همم بهدمه فأراه الله من آياته العظيمة ما كان سبباً في هدايته وتعظيمه للبيت، كما سيأتي ذكر ذلك في المباحث القادمة، وأما أصحاب الفيل الذين أرادوا هدم الكعبة وتخريبها، فقد أهلكهم الله، وأرسل عليهم طيراً قتلهم عن بكرة أبيهم كما أخبر الله عنهم في سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: ١].

وسيأتي ذكر قصة أصحاب الفيل، وكذلك قصة تبع في محاولة هدم البيت، وذكر العجائب العجيبة والدفاع الإلهي التي يتجلى من خلالها عظمة هذا البيت، في مباحث مستقلة.



قال السعدي - رَحِمَهُ اللهُ -: « ولا يزال حفظ الله وعنايته ببيته ودفاعه عنه إلى أن يشاء سبحانه، والله غالب على أمره ». اهـ .

وقد روى البخاري ومسلم عن عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: « يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ فَإِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسِّفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُخَسِّفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَأُهُمْ، وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، قَالَ: يُخَسِّفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُعَثِّقُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ ».

فإذا جاء وعد الله واقتربت الساعة انبرا لها رجل من الحبشة يهدمها بتقدير الله الكوني، وهذا يكون في آخر الزمان، ومن علامات الساعة الكبرى.





تخريب البيت في آخر الزمان

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ شَرَفَ الكعبة وعظمها، وأودع تعظيمها في قلوب عباده، برَّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، عربهم وعجمهم، وحفظها وتكفل بحفظها، وسخر من يحميها ويدود عنها إلى أن يأتي موعودها في آخر الزمان، فيكون تخريبها من علامات الساعة الكبرى، إذ ينبري لها رجل من الحبشة يقال له : ذو السويقتين، رجل نحيف الساقين يهدمه.

فيحج عيسى ابن مريم - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ويطوف حول مكان البيت، وكذلك المهدي عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما روى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : «لِيَحْجَنَّ الْبَيْتُ وَلِيَعْتَمِرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» ومن المعلوم أن يأجوج ومأجوج يخرجون بعد نزول عيسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وخروج المهدي.

قال الحافظ - رَحِمَهُ اللَّهُ - في الفتح - : (٤٥٥ / ٣) : «...ويظهر والله أعلم أن المراد بقوله ليحجن البيت أي مكان البيت لما سيأتي بعد باب أن الحبشة إذا خربوه لم يعمر بعد ذلك». اهـ.

فقد جاء في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «يُخْرَبُ الْكَعْبَةُ ذُو السَّوَيْتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ».

قال ابن بطال - رَحِمَهُ اللَّهُ - في شرح صحيح البخاري - (٢٧٨ / ٤) : «في هذه الآثار إخبار عما يكون من الحدثان والأشراط، وذلك يكون في أوقات مختلفة، فحديث عائشة أن الجيش الذي يغزو الكعبة يخسف بهم هو في وقت غير وقت



هدم ذي السويقتين لها ، ويمكن أن يكون هدمه لها عند اقتراب الساعة والله أعلم ، ولا يدل ذلك أن الحج ينقطع ؛ فقد أخبر - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أن البيت يحج بعد خروج يأجوج ومأجوج ، وأن عيسى ابن مريم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يحج ويعتمر بعد ذلك .»

وقال النووي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في شرحه على مسلم - (٩ / ٢٩١) : «وَلَا يُعَارِضُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ لِأَنَّ مَعْنَاهُ آمِنًا إِلَى قُرْبِ الْقِيَامَةِ وَخَرَابِ الدُّنْيَا» . اهـ .

قلت: فينبغي على كل مسلم أن يغتنم هذا البيت قبل أن يرفع أو ينقطع عنه أو يعجز.

فقد روى الطبراني وغيره عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال : قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «استمتعوا بهذا البيت فقد هدم مَرَّتَيْنِ ويرفع في الثالثة» صححه الألباني في صحيح الترغيب (١١١٠).

وجاء في مسند أحمد وغيره عن ابن عباس ، عن الفضل ، أو أحدهما عن الآخر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال : قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرُضُ الْمَرِيضُ ، وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ ، وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ » صححه الألباني في صحيح أبي داود (١٥٢٢) وغيره

فانظر في حديث ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كيف جعل زيارته والطواف حوله وأداء المناسك فيه متعة فقال : «استمتعوا بهذا البيت» وفي الحديث الآخر حث على العجلة إليه قبل أن يعيقه شيء عن زيارته ، ومن المحزن أن كثيرا من المسلمين يطوفون حول كثير من دول العالم وهم عن زيارة البيت الحرام غافلون ، بل بعضهم يسافر إلى مناطق قريبة من البيت للتكسب ويعجز عن



زيارة البيت ، والله المستعان.

قال المناوي - رَحِمَهُ اللهُ - في فيض القدير (١/ ٦٣٩): (استمتعوا من) هي بمعنى الباء (هذا البيت) الكعبة غلب عليها كالنجم على الثريا والمراد من الاستمتاع به إكثار الطواف والحج والاعتبار والاعتكاف ودوام النظر إليه (فإنه قد هدم مرتين) قال في الكشف أول من بناه إبراهيم ثم بناه قوم من العرب من جرهم ثم هدم فبنته العمالة ثم هدم فبنته قريش انتهى .

وقال ابن حجر وغيره اختلف في عدد بناء الكعبة والتي تحصل أنها بنيت عشر مرات : بناء الملائكة قبل خلق آدم لما قالوا : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] .

ذكره مجاهد، ثم آدم رواه البيهقي في الدلائل، ثم بنوه من بعده، ثم نوح، ثم إبراهيم، وزعم ابن كثير أنه أول من بناه وأنكر ما عداه ورد، ثم العمالة رواه الفاكهي عن علي (ويرفع في الثالثة) بهدم ذي السويقتين له، والمراد رفع بركته، وقال في الإتحاف: اقتصره في الحديث عدم على مرتين أراد به هدمها عند مجيء الطوفان إلى أن بناها إبراهيم وهدمها في أيام قريش لما أجحف بها السيل وكان ذلك مع إعادة بنائها في زمن المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله من العمر خمس وثلاثون سنة والأمر بالاستمتاع به يشمل النظر إليه والطواف به والصلاة فيه». اهـ .



فشل تبّع في هدم الكعبة المشرفة وما ترتب على ذلك من عجائب

جرت سُنّة الله في أرضه أن من أراد البيت بسوء أن الله يجعل كيده في نحره فيهلكه أو يردّه خائبًا أو يهديه لحب البيت وخدمته وتعظيمه لما يرى من دفاع الله عنه، ومن محاولات الكيد بالكعبة محاولة تبّع لهدمها إذ باء بالفشل ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

قال العلامة المؤرخ ابن الغازي المكي الحنفي في كتابه إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام (١/ ١٨١-١٨٢): «ذكر الأزرقى عن ابن اسحاق قال: سار تبّع الأول إلى الكعبة وأراد هدمها وتخريبها، وخزاعة يومئذ تلي البيت وأمر مكة، فقامت خزاعة دونه، وقاتلت عنه أشد القتال حتى رجع. ثم تبع آخر فكذاك. وأما التبّع الثالث الذي أراد هدم البيت فإنما كان في أول زمان قريش.

قال: وكان سبب خروجه ومسيره إليه: أن قوما من هذيل من بني لحيان جاؤوه فقالوا: إن بمكة بيتًا تعظمه العرب جميعًا، وتقد إليه وتنحدر عنده، وتحجّه وتعتمره، وإن قريشًا تليه؛ فقد حازت شرفه وذكره، وأنت أولى أن يكون ذلك البيت وشرفه وذكره لك. فلو سرت إليه وخبرته وبنيت عندك بيتًا، ثم صرفت حاجّ العرب إليه كنت أحقّ به منهم، قال: فأجمع المسير إليه.

وعن موسى بن أبي عيسى المدني، قال: لما كان تبّع بالدّف من جُمدان بين أمّج وعُسفان، دفت بهم دوابهم، وأظلمت عليهم الأرض، فدعا أحبارًا كانوا معه من أهل الكتاب فسألهم، فقالوا: هل هممت لهذا البيت بشيء؟ قال: أردت



أن أهدمه. قالوا: فانو له خيرًا؛ أن تكسوه وتنحر عنده. ففعل، فانجلت عليهم الظلمة. وإنما سمي الدف من أجل ذلك.

وفي رواية: فسألهم، فقالوا: هل هممت لهذا البيت بسوء؟ فأخبرهم بما قال له الهذليون وبما أراد أن يفعل، فقالت الأخبار: والله ما أرادوا إلا هلاكك وهلاك قومك، إن هذا بيت الله الحرام، ولم يرد أحد قط بسوء إلا هلك. قال: فما الحيلة؟ قالوا: تنوي له خيرًا، أن تعظمه وتكسوه، وتنحر عنده، وتحسن إلى أهله. ففعل، فانجلت عنهم الظلمة وسكنت الريح، وانطلقت بهم ركابهم ودوابهم، فأمر تبع بالهذليين فضربت أعناقهم وصلبهم وإنما كانوا فعلوا ذلك حسدًا لقريش على ولايتهم البيت» اهـ.

قلت: وهذا هو مصير كل من أراد البيت وأهله بسوء أن يخزيه الله أو يهلكه كما جرى لأمثاله من قبل: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلُوا﴾ [محمد ١٠].

وقال ابن ظهيرة في الجامع اللطيف (ص: ٥١-٥٤): «إن تبع من الخمسة الذين دانت لهم الدنيا بأسرها، وكان كثير الوزراء، فاختر منهم واحدًا وأخرجه لينظر في ملكه، وكان إذا أتى بلدة يختار من حكمائها عشرة رجال، وكان معه من العلماء والحكماء مائة ألف رجل، وهم الذين اختارهم من البلدان ولم يكونوا محسوبين من الجيش. ثم إنه قصد مكة، فلما انتهى إليها لم يخضع له أهلها كخضوع غيرهم ولم يعظموه، فغضب لذلك ودعا وزيرهم وشكى عليه فعلهم، فقال له: إنهم عرب لا يعرفون شيئًا، ولهم بيت يقال له الكعبة وهم معجبون به، فتزل الملك بعسكره بيطحاء مكة، وعزم على هدم البيت وقتل الرجال ونهب النساء وسبيهم، فأخذ الصداق، وتفجّر من عينيه وأذنيه ومنخريه وفمه ماء نتن، فلم يصبر عنده أحد طرفة عين من شدة التنت، فقال لوزيره: اجمع العلماء والحكماء والأطباء، فلم يقدرُوا على الجلوس



عنده، وعجزوا عن مداواته، وقالوا: نحن نقدر على مداواة ما يعرض من أمور الأرض، وهذا من أمور السماء لا نستطيع له ردًا، ثم اشتد أمره وتفرق الناس عنه، فلما أقبل الليل جاء أحد العلماء إلى وزيره فقال: إن بيني وبينك سرًا، فإن كان الملك يصدقني في حديثه عاجلته، فاستبشر الوزير بذلك، وجمع بينه وبين الملك، فلما خلا به قال له العالم: [أيها الملك أنت نويت لهذا البيت سوءًا؟ قال: نعم، فقال له العالم: أيها الملك نيتك أحدثت لك هذا الداء، ورب هذا البيت عالم بالأسرار، فبادر وارجع عما نويت، فقال الملك: قد أخرجت ذلك من قلبي ونويت لهذا البيت وأهله كل خير، فلم يخرج العالم من عنده إلا وقد عافاه الله تعالى من علته، فأمن بالله من ساعته، وخلع على الكعبة سبعة أثواب، وهو أول من كسى الكعبة ثم خرج إلى يثرب وليس بها يومئذ بيت، وإنما فيها عين ماء فنزل عند العين، ثم إن العلماء والحكماء أخرجوا من بينهم أربعمئة وهم أعلمهم وتبايعوا أن لا يخرجوا من يثرب وإن قتلهم الملك، فلما علم الملك بذلك سألهم عن الحكمة التي اقتضت إقامتهم في هذه البلدة؟ فقالوا: أيها الملك إن ذلك البيت وهذه البقعة يشرفان برجل يُبعث في آخر الزمان اسمه محمد ووصفوه ثم قالوا: طوبى لمن أدركه وآمن به، ونحب أن ندركه أو يدركه أولادنا، فلما سمع الملك بذلك همَّ بالمقام معهم فلم يقدر على ذلك، فأمر بعمارة أربعمئة دار على عدة العلماء وأعطى كل واحد منهم جارية وأعتقها وزوجه بها، وأعطاهم مالا جزيلا، ثم كتب كتابًا وختمه بخاتم ذهب ودفعه إلى عالمهم الكبير الذي أبرأه من علته^(١) وأمره أن يدفعه إلى محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إن أدركه، وإلا يوصي بذلك أولاده ثم أولادهم.

(١) الصواب أن يقال الذي عافاه الله بسببه.



وكان الكتاب أما بعد :فإني آمنت بك وبكتابك الذي ينزل عليك ،وأنا على دينك وستتك ،وآمنت بربك وبكل ما جاء من ربك من شرائع الإيمان والإسلام، فإن أدركتك فيها ونعمت، وإلا فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة ،فإني من أمتك الأولين ،ثم نقش عليه: الله الأمر من قبل ومن بعد، وكتب عنوانه إلى محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب نبي الله ورسول الله وخاتم النبيين ورسول رب العالمين - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من تبع حمير بن وردع». اهـ. (١)

(١) انظر كتاب : إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام ١ (١٨٤-١٨٦) .



قصة أصحاب الفيل

من عجائب البيت الحرام أن الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حفظه وحماه من مكر الماكرين وكيد الكائدين، وما قصة أبرهة الحبشي عنا ببعيد، فقد ذكرها الله في كتابه العزيز بآيات تتلى إلى قيام الساعة، وذلك أن أبرهة الحبشي أراد هدم البيت فحشد جيوشه وأرسل الفيلة فسلط الله عليهم جنداً من جنوده وهي الطير الأبايل أهلكتهم فتركتهم فرسى كأعجاز نخل خاوية، فجعل الله ذلك عبرة للمعتبرين، وتعظيماً لبيته العظيم، وتوطئة لمبعث نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وقد ولد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في ذلك العام، فصار تعظيم البيت وإجلاله في قلوب سائر العالمين، بل صارت العرب تعظم قريشاً لما حباهم الله بهذه النعمة، لكنهم لم يشكروا الله عليها، ولم يحافظوا عليها، ثم أنعم الله عليهم بنعمة أخرى فأرسل إليهم نبياً منهم يعرفون صدقه وأمانته ونسبه، فذكرهم الله بذلك فلم يلتفتوا إلى ذلك.

قال تعالى في كتابه الكريم في شأن أصحاب الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ (٥)﴾ [الفيل: ١ - ٥].

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٩٣٤) في تفسير هذه السورة: «أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه،



وجاءوا بجمع لا قبل للعرب به، من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة حماة من سجيل، فرمتهم بها، وتتبع قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، وقصتهم معروفة مشهورة، وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فصارت من جملة إرهابات دعوته، ومقدمات رسالته، فله الحمد والشكر». اهـ.

وقال المفسر ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٨/ ٤٨٣-٤٨٨) في تفسيره لسورة الفيل: «هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم أنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردد هم بشر خيبة. وكانوا قوما نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاب والتوطئة لمبعث رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم نصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشره ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد، صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء.

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب،... أن أبرهة أرسل للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُنَّ قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمى العرب القُلَيْس؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف



حَجَّ العرب إليها كما يُحَجُّ إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا، حتى قصدوها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحدث فيها^(١) وكرَّ راجعًا. فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخربنه حجرًا حجرًا.

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا، وكان يومًا فيه هواء شديد فأحرقتة، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عَرَمَرَم؛ لئلا يصدّه أحد عنه، واستصحب معه فيلاً عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضًا ثمانية أفيال. وقيل: اثنا عشر فيلاً. وقيل غيره، والله أعلم. يعني ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عُتْق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة. فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًّا، ورأوا أن حقًّا عليهم المحاجة دون البيت، وَرَدَّ من أراده بكيد. فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم، يقال له «ذونُفَر» فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريد الله، عَزَّجَلَّ، من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذونُفَر» فاستصحبه معه. ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، عَرَضَ له نُفَيْل بن حَبِيب الخثعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نُفَيْل بن حَبِيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في

(١) الذي يظهر أنه تبرز فيها.



بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم، الذي عندهم، الذي يسمونه اللات. فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغال» دليلاً. ... وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت. فجاء حناطة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته، وحرمة، وإن يخلى بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه.

فقال له حناطة: فاذهب معي إليه. فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال لترجمانه: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبني حين رأيته، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني! قال: أنت وذاك.

ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رءوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده.



وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لَاهُمْمَ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاْمْنَعِ حِلَالَكَ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمَحَالُّهُمْ غَدَاً مَحَالِكَ

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال

وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق، فينتقم الله منه.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله - وكان اسمه محموداً - وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام». ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يشد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مَراقه فبزغوه بها ليقوم، فأبى؛ فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك، فإذا وجهوه إلى الحرم رُبَضَ وصاح. وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه، ليقهر الفيل على دخول الحرم. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان.

مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على



الطريق هذا. ونفيل على رأس الجبل مع قریش وعرب الحجاز، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة، وجعل نفيل يقول:

أَيْنَ الْمَفَرُّ؟، وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ وَالْأَشْرُمُ الْمَغْلُوبُ غَيْرَ الْغَالِبِ

قال ابن إسحاق: وقال نفيل في ذلك أيضًا:

أَلَا حُيِّتَ عَنَا يَا رُدَيْنَا نَعْمَنَا كُمْ مَعَ الْأَصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتَ - وَلَا تَرِيْهِ لَدَى جَنْبِ الْمُحْصَبِ - مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَذَرْتَنِي وَحَمَدْتَ أَمْرِي وَلَمْ تَأْسَى عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا
حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا وَخَفْتُ حَجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكُلُّ الْقَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نَفِيلٍ كَأَنَّ عَلِيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا!

وقال وهب بن منبه: كان معهم فيلة، فأما محمود - وهو فيل الملك - فربض، ليقندي به بقية الفيلة، وكان فيها فيل تشجع فحصب، فهربت بقية الفيلة.

وقال عطاء بن يسار، وغيره: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعًا، ومنهم من جعل يتساقط عضوًا عضوًا وهم هاربون، وكان أبرهة ممن يتساقط عضوًا عضوًا، حتى مات ببلاد خثعم.

قال ابن إسحاق: فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل منهل وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.



عجائب وأسرار

وذكر مقاتل بن سليمان: أن قريشاً أصابوا مالا جزيلا من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة.

قال ابن هشام: الأبايل الجماعات.. قال: وأما السجيل، ..: الشديد الصلب... وهي الحجارة من الحجر والطين. قال: والعصف: ورق الزرع الذي لم يُقضب، واحدته عصفه..

... وقال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، والضحاك: «أبايل» يتبع بعضها بعضاً. وقال الحسن البصري، وقتادة: الأبايل: الكثيرة. وقال مجاهد: أبايل: شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبايل: المختلفة، تأتي من هاهنا، ومن هاهنا، أتتهم من كل مكان.

.. وقال ابن جرير.. عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل؛ .. هي: الأقاطيع، كالإبل المؤبلة...

وعن ابن عباس: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب... وعن عكرمة في قوله: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: كانت طيراً خضرا خرجت من البحر، لها رءوس كراءوس السباع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير، قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر، أمثال الخطاطيف. كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مجزعة: حجرين في رجله وحجراً في منقاره. قال: فجاءت حتى صفت على رءوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر.



وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني التبن .

والمعنى: أن الله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح، كما جرى للملكهم أبرهة، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات. فملك بعده ابنه». اهـ . مختصراً

الطواف بالبيت:

ومن عظمة الكعبة أن الناس مقبلون عليها بالطواف حولها والصلاة إليها ليل نهار، ما بين معتمر أو متنفل، فما من ساعة من ليل أو نهار إلا وحول الكعبة كظيظ من الزحام من الطائفين، حتى وقت السحر لا يخلو من ذلك، وإن صحن الحرم لا يتوقف عن الدوران بالطائفين والعابدين آناء الليل وأطراف النهار^(١)، إلا وقت الصلوات المفروضة فإنه يتوقف عن الطواف ويقبل الناس على الصلاة.

وقد جعل الله الطواف بالكعبة عبادة عظيمة يتقرب المسلمون بها إلى ربهم وشبهه بالصلاة إلا أنه أذن فيه بالكلام واشترط فيه الطهارة، وفضل بعض أهل العلم الطواف على الصلاة في ذلك المكان، والأفضل للعبد أن يجمع بين الأمرين لفضل العبادتين في ذلك المكان.

فقد روى الترمذي عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «إن الطواف حول البيت مثل الصلاة، ولكنكم تتكلمون فيه، فمن تكلم فيه

(١) تنبيه: إنه في يوم الجمعة ٢٥ من شهر رجب لعام ١٤٤١ هـ أمرت الحكومة السعودية بالحجر الصحي وإغلاق المسجد الحرام وتعطيله من الصلاة والطواف بالبيت لتوقي مرض كورونا، واستمر ذلك بضعة أشهر ثم فتح المسجد الحرام وتم أداء الصلوات والطواف بالبيت واداء مناسك الحج والعمرة ولله الحمد والمنة.



فلا يتكلمنَّ إلا بخير» صححه الألباني في صحيح الترغيب وغيره (١١٤٠).

فيشرع الإكثار من الذكر والدعاء أثناء الطواف لفضله في ذلك المكان.

ولفضل الطواف وعظمته فإنه لا يشرع للحائض الطواف بالبيت حتى تطهر لما جاء عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا نَذْكُرُ إِلَّا الْحَجَّ فَلَمَّا جِئْنَا سَرَفَ طَمَثْتُ فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَا أَبْكِي فَقَالَ : « مَا يُبْكِيكِ ؟ » قُلْتُ : لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنِّي لَمْ أَحِجَّ الْعَامَ ، قَالَ : « لَعَلَّكَ نَفْسَتْ » قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : « فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ فَافْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي ». متفق عليه

تنبيه: الطواف ليس خاصاً بالمعتمر فقط، بل يشرع لغير المعتمرين أن يطوفوا بالبيت في سائر الأوقات، على أن يكون الطواف سبعة أشواط كما هو معلوم، ولا بأس من تكرار الطواف مرة بعد أخرى، على أن يفصل الطائف بين كل طوافين بفاصل من ذلك ركعتان خلف المقام، ولا يشترط لبس ثياب الإحرام للطائف ما لم يكن معتمراً.



الكعبة قبلت المسلمين

من فضائل الكعبة أن الله تعالى جعلها قبله للمسلمين في العالم أجمع ، يستقبلونها في صلاتهم وفي دعائهم وتقبل موتاهم في قبورهم في شتى بقاع الأرض، فلا يخلو وقت من الأوقات عن الصلاة إليها واستقبالها عند الدعاء، بل ربما لا توجد ساعة من الساعات في العالم إلا وتجد من يصلي إليها، ويستقبلها عند الدعاء، وقد جعل الله استقبال الكعبة شرطاً لصحة الصلاة، فمن صلى إلى غير الكعبة فصلاته باطلة، قال رب العزة والجلال في كتابه الكريم: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلُوبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤] .

ولقد كانت قبله المسلمين الأولى هي بيت المقدس، ومن حكمة المولى جل وعلا أن تكون قبلتهم الثانية والأخيرة هي الكعبة، واختارها لهم، ونسخ بيت المقدس، فاعترض السفهاء من أهل الكتاب والذين في قلوبهم مرض وأرادوا التشكيك بهذه القبلة و بهذا الدين فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] .

قال المفسر البغوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ١٥٨): «قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ الْجُهَالُ﴾ مِنْ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا عَنْ قِبْلَتِهِمْ وَحَوْلَهُمْ صَرْفُهُمْ وَحَوْلُهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا يعني بيت المقدس والقبلة فعلة من المقابلة نزلت في اليهود ومشركي مكة



عجائب وأسرار

طعنوا في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة، فقالوا لمشركي مكة: قد تردد على محمد أمره فاشتاق إلى مولده وقد توجه نحو بلدكم وهو راجع إلى دينكم فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ له والخلق عبيده .

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٤٢) اهـ .

وقال المفسر ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٤٥٢): [قيل المراد بالسفهاء هاهنا: المشركون؛ مشركو العرب، قاله الزجاج. وقيل: أحبار يهود، قاله مجاهد. وقيل: المنافقون، قاله السدي. والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم] اهـ

الكعبة أول بيت وضع للعبادة:

قال البغوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٢/ ٦٩) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] . سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] .

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦] .

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٢/ ٧٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) [آل عمران: ٩٦-٩٧] .



يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، أَيُّ: لِعُمُومِ النَّاسِ، لِعِبَادَتِهِمْ وَنُسُكِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يَعْنِي: الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الَّذِي يَزْعَمُ كُلُّ مَنْ طَائِفَتِي النَّصَارَى وَالْيَهُودِ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحْجُونَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَنَادَى النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ . وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُبَارَكًا﴾ أَيُّ وَضِعَ مُبَارَكًا ﴿وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ .

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكَتِ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ» .

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، بِهِ . اهـ .

فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَهُ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَبْنِيَ الْبَيْتَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الطَّاهِرِ وَشَرَفَهُ وَابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنِيبَاتِهِ وَدَعَا لِمَكَّةَ وَلَأَهْلِهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿١٦﴾ [الحج: ٢٦] .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

[البقرة: ١٢٧ - ١٢٩] .



سكينة البيت:

إن من المعروف عند المسلمين شرعاً وعقلاً وحساً أن بيوت الله مطلقاً تشتمل على السكينة والطمأنينة والخشوع، فمن باب أولى وأحرى بيت الله الحرام الذي هو أفضل المساجد على الإطلاق، فإنه يشتمل على السكينة والطمأنينة والخشوع بما لا يوجد في غيره من المساجد، فإن السكينة تغمر زائريه فتطمئن قلوبهم وتسكن جوارحهم، وينسون همومهم فيقبلون على ذكر ربهم ويزهدون في دنياهم، ولولا أن المسلم مشغول بمن يعول وملزم ببعض الأمور لما فارق ذلك المكان، ولعكف في البيت الحرام يتعبد للملك العلام، لأنه وجد بغيته وانشرح صدره وأطمأن قلبه، سمعنا هذا من كثير من العامة فضلاً عن الخاصة، ولذلك تجد الذين وفقهم الله لزيارة البيت الحرام يعاودون زيارته في كل عام مرة أو مرتين، رغبةً في ذلك المكان وشوقاً لزيارته ليتمتعوا فيه بأداء العبادات من طواف وسعي وصلاة ودعاء وذكر، وهذه من الأسرار والعجائب التي جعلها الله في هذا البيت العتيق كيف لا؛ وقد أسس على التقوى من أول يوم، فيتوجه العباد إلى ربهم تائبين منيبين، ذاكرين مستغفرين، راجين مغفرة ذنوبهم وجلين من عقوبة ربهم، ليس لهم مقصد من مقاصد الدنيا إذ أنه ليس محلاً لذلك، فحري أن تطمئن قلوبهم وتخشع جوارحهم وتدمع أعينهم.

فإن الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».



وهذا عام في كل مسجد وهو في المسجد الحرام من باب أولى فإنه أول المساجد وأفضلها وأكثرها أجراً قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦] .

فحري بالمسلم أن يجدد إيمانه في هذا المكان المبارك، فيخشع قلبه من ذكر الله، وتدمع عينه من خشية الله، وقد علم من الشرع فضل البكاء من خشية الله. فقد أخرج الترمذي عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» صححه الألباني برقم: (٤١١٣) في صحيح الجامع. وروى الترمذي أيضاً عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي مَنْخَرِي مُسْلِمٌ أَبَدًا». صححه الألباني برقم: (٧٧٧٨) في صحيح الجامع .

ولاشك أن البكاء والخشية في ذلك المكان أفضل من غيره لفضل ذلك المكان، فمن لم يخشع قلبه في ذلك المكان فهو من أصحاب القلوب القاسية، ومن لم تدمع عينه في ذلك المكان فهو من أصحاب العيون اليابسة: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٢٢] اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِٓ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾



عجائب وأسرار

ولا أظن مسلماً يدخل ذلك المكان فيطوف بالكعبة ويسعى بين الصفا والمروة ولا يخشع قلبه، ولو كان من أصحاب المعاصي فإن الغالب أن القلوب تلين في بيت الله الحرام وتؤوب إلى بارئها، فإن وجد أحد يقسو قلبه حتى في ذلك المكان فكبر عليه أربعاً قبل وفاته.

فننصح لمن وجد في قلبه قساوة أو مالت نفسه إلى المعاصي أو تقاعست عن الطاعات بمعاهدة قلبه بزيارة بيت الله الحرام، فبذلك يتجدد إيمانه ويلين قلبه ويستعيد نشاطه بإذن الله، فإن المسلم يشعر بلذة الطاعة وزيادة الإيمان في المسجد الحرام، ويجد للإيمان حلاوة لا تقوم لها الدنيا وما فيها، وذلك لشرف ذلك المكان ووجود السكينة فيه ونزول الرحمة على أهله، وإقبال العباد على خالقهم ومولاهم، وإعراضهم عما سواه، وقناعتهم بما أعطاهم ورضاهم بما شرع لهم وفرضه عليهم، وامتنالهم لما أمرهم واجتنابهم لما نهاهم عنه، وإعراضهم عن المعاصي في ذلك المكان، وإن وجدت بعض الدواعي إليها فإن الشيطان يضعف في وسوسته لهم بالسوء في ذلك المكان، لقربهم من ربهم وقربه منهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولتعظيمهم لذلك المكان واستقبالهم للمعاصي فيه، فإنهم يرون الإحداث فيه والمعاصي من الموبقات لعظمة البيت في قلوبهم، فإنهم لا يريدون التحول عن ذلك المكان لما يجدونه من السكينة والطمأنينة التي تنعمت بها قلوبهم لولا انشغالهم ببعض أمورهم لما فارقوا ذلك المكان؛ لأنهم وجدوا فيه جنة الدنيا ونعيمها الحقيقي، قال بعض السلف: «إنها لتمر علينا أوقات من السكينة والطمأنينة إن كان أهل الجنة فيما نحن فيه فإنهم في نعيم» اهـ. أو كما قال.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «إن في الدنيا جنة هي كالجنة في الآخرة فمن دخلها دخل تلك الجنة». اهـ. يريد الطاعة والإيمان ومجالس الذكر.



جاء عن إبراهيم بن أدهم - رَحِمَهُ اللهُ - أنه كان على حافة نهر الأردن فأكل كسيرات من الخبز مبلولة بالماء ثم قال لأبي يوسف: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف.. وقال له أبو يوسف - رَحِمَهُ اللهُ -: «: طلب القوم الراحة والنعيم فأخطأوا الطريق المستقيم» اهـ.

فإذا كانت السكينة والطمأنينة والحياة السعيدة عند هؤلاء وهم في غير المسجد الحرام!، فكيف سيكون حالهم في المسجد الحرام وبجوار الكعبة؟ لا شك أن السعادة والطمأنينة ستغمر أهل المسجد الحرام من باب الأولى والأحرى، فإنه لينفذ مداد القلم عن كتابة كل ما يتعلق بها، وإنه ليعجز اللسان عن التعبير عنها، ولكن هذا غيض من فيض، وقطرة من مطرة، فنسأل الله أن يبلغنا زيارة بيته الحرام كل عام.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد ذلك في غير المسجد الحرام أو أننا ننسى المساجد الأخرى فإن السعادة منوطة بذكر الله وفي بيوت الله حيثما وجد الإنسان، ولكن يتميز المسجد الحرام عن غيره بزيادة فضل وأجر واصطفاء، وإلا فينبغي على المسلم أن يكون عابداً لله ذاكراً له في جميع أحواله، وحيثما كان فبذلك يحبي قلبه وينشرح صدره وتطمئن نفسه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

اصطفاء مكة:

إن مكة المكرمة قد كرمها الله وفضلها على بقاع الدنيا، واختارها موطناً لبيته الحرام، الذي جعله مأوى للعابدين، ومنسكاً للطائفين، ومكاناً للعاكفين والقائمين والراكعين الساجدين، ومقرّاً للكعبة المشرفة التي جعلها قبلة للمسلمين، وجعلها مهبط الرسالة ومنبع النبوة.



عجائب وأسرار

وهي أحب البلاد إلى الله وإلى رسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فقد روى الترمذي وغيره عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ ولولا أن قومك أخرجونك منك ما سكنت غيرك» صححه الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ٢٥٠) (٣٠٨٢) والوادعي في الصحيح المسند (١/ ٥٧٤) (٧١٠).

ومن فضلها أن الله تعالى أقسم بها فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾^(١) وَطُورِ سِينِينَ^(٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ^(٣) [التين: ١-٣]. والبلد الأمين هو مكة.

وفيهما أول مسجد وضع للناس قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا^(٩٧) [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

ومن خصائص مكة أنها حرام لا ينفر صيدها ولا يختلي خللاها ولا يعصد شجرها ولا تلتقط لقطتها إلا لمنشد ولا يسفك فيها دم بغير حق ولم تحل لأحد إلا ساعة من نهار لنبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يوم الفتح فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ... إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقَطُ لِقَطْتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يَخْتَلِي خَلَاهُ فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لَقَيْنَهُمْ وَلَبِئُوتِهِمْ قَالَ إِلَّا الْإِذْخِرَ».

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - في زاد المعاد (١/ ٤٧): [اخْتِيَارُ الْبَلَدِ الْحَرَامِ وَبَيَانُ خَصَائِصِهِ].



وَمِنْ هَذَا اخْتِيَارُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْأَمَاكِنِ وَالْبِلَادِ خَيْرَهَا وَأَشْرَفَهَا وَهِيَ الْبَلَدُ الْحَرَامُ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اخْتَارَهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَهُ مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِتْيَانَ إِلَيْهِ مِنَ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ فَلَا يَدْخُلُونَهُ إِلَّا مُتَوَاضِعِينَ مُتَخَشِّعِينَ مُتَذَلِّلِينَ كَاشِفِي رُءُوسِهِمْ مُتَجَرِّدِينَ عَنْ لِبَاسِ أَهْلِ الدُّنْيَا.

وَجَعَلَهُ حَرَمًا آمِنًا لَا يُسْفَكُ فِيهِ دَمٌ وَلَا تُعْصَدُ بِهِ شَجَرَةٌ، وَلَا يَخْتَلِي خَلَاهُ وَلَا تُلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ لِلتَّمْلِكِ بَلْ لِلتَّعْرِيفِ لَيْسَ إِلَّا، وَجَعَلَ قَصْدَهُ مُكْفَرًا لِمَا سَلَفَ مِنَ الذُّنُوبِ مَاحِيًا لِلْأَوْزَارِ حَاطًا لِلْخَطَايَا كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، وَلَمْ يَرْضَ لِقَاصِدِهِ مِنَ الثَّوَابِ دُونَ الْجَنَّةِ فِي «السَّنَنِ» مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ» وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ» فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْبَلَدُ الْأَمِينُ خَيْرَ بِلَادِهِ وَأَحَبَّهَا إِلَيْهِ وَمُخْتَارُهُ مِنَ الْبِلَادِ لَمَا جَعَلَ عَرَصَاتِهَا مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ فَرَضَ عَلَيْهِمْ قَصْدَهَا وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَكْدِ فُرُوضِ الْإِسْلَامِ، وَأَقْسَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ فِي مَوَاضِعٍ مِنْهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣] [ص ٤٩].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البعد: ١] وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بَقْعَةٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ قَادِرِ السَّعْيِ إِلَيْهَا وَالطَّوَّافِ بِالْبَيْتِ الَّذِي فِيهَا غَيْرَهَا وَلَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَوْضِعٌ يُشْرَعُ تَقْبِيلُهُ وَاسْتِلاَمُهُ وَتَحْطُّ الْخَطَايَا وَالْأَوْزَارُ فِيهِ غَيْرَ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ وَالرَّكْنِ الْيَمَانِيِّ. وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ



عجائب وأسرار

الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِأَلْفِ صَلَاةٍ فِي « سُنَنِ النَّسَائِيِّ » وَ « الْمُسْنَدِ » بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: « صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِأَلْفِ صَلَاةٍ » وَرَوَاهُ ابْنُ حَبَّانَ فِي « صَحِيحِهِ » وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَفْضَلُ بِقَاعِ الْأَرْضِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَلِذَلِكَ كَانَ شَدَّ الرَّحَالِ إِلَيْهِ فَرَضًا وَلِغَيْرِهِ مِمَّا يُسْتَحَبُّ وَلَا يَجِبُ وَفِي « الْمُسْنَدِ » وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ الْحَمْرَاءِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ وَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِالْحَزْوَرَةِ مِنْ مَكَّةَ يَقُولُ: « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ وَلَوْلَا أَنِّي أَخْرَجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ » قَالَ التِّرْمِذِيُّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . « . اهـ .

وقد دعا لها الخليل ولأهلها بالخيرات والبركات، والإقبال على الطاعات.

قال - تعالى - : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمَ رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧) ﴿ [إبراهيم : ٣٧] .

وقال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٢٦) ﴿ [البقرة : ١٢٦] .

وروى البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا وَحَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدَّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِمَكَّةَ » .



ومن فضل مكة على غيرها أن الله سماها أم القرى ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧] .

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١٩١ / ٧) : «وسميت مكة «أم القرى» ؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول - وهو واقف بالحزورة في سوق مكة - : «والله، إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت». اهـ .

وقال ابن القيم - رَحِمَهُ اللَّهُ - في زاد المعاد (١ / ٤٧) : «أَخْبَرَ أَنَّهَا أُمُّ الْقُرَى فَالْقُرَى كُلُّهَا تَبَعٌ لَهَا وَفَرْعٌ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصْلُ الْقُرَى فَيَجِبُ أَلَّا يَكُونَ لَهَا فِي الْقُرَى عَدِيلٌ فَهِيَ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْفَاتِحَةِ أَنَّهَا أُمُّ الْقُرْآنِ وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ عَدِيلٌ». اهـ .

طهارة البيت:

إن أظهر مكان في الأرض على الإطلاق هو بيت الله الحرام، فإن الله أمر نبيه إبراهيم وابنه إسماعيل - عَلَيْهِمَا السَّلَام - ثم من بعدهما نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بتطهير المسجد الحرام من الشرك والكفر ومن الأدناس والأرجاس والأوساخ، وهياً الله من يعتني بتطهيره وتنظيفه إلى أن تقوم الساعة، ووفق الله الحكومة السعودية - رعاها الله - بتطهيره وتنظيفه حتى يكاد الرائي يظن أن جدرانها وقيعانه من الزجاج لصفائه ونقائه، وما من مسلم يدخله إلا ويحافظ على نظافته لحبه وتعظيمه إياه؛ لأنه هو المكان المقدس والمعظم عند جميع المسلمين، قال تعالى



أمر أنبيه إبراهيم بتطهير البيت: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٦٥): ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقذار، ليكون ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ فيه ﴿وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين، قدم الطواف، لاختصاصه بالمسجد الحرام، ثم الاعتكاف، لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى.

وأضاف الباري البيت إليه لفوائد:

منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبذلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك.

ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه... هـ..

وإن أعظم ما يُطَهَّرُ به بيت الله الحرام هو من النفاق والشرك والكفر والمعبودات من دون الله، فقد دخل نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الكعبة يوم الفتح وكسر الأصنام بيده الشريفة وهو يقول: «صَدَقَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» والقصة في الصحيحين عن ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، فصار بيت الله الحرام طيباً طاهراً، لا يحبه إلا طيب، ولا يبغضه إلا خبيث نجس زنديق منافق بعيد عن الله وعن دينه عياداً بالله.



وقال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللهُ - (١/ ٥٣٦): ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب». اهـ.





أسماء مكة المشرفة

أسماء مكة كثيرة وذلك لعظم شأنها وشرفها، وأشهرها: مكة، وبكة، والبلد الحرام، وأم القرى.

ومن هذه الأسماء:

مكة، وبكة، والبلد الأمين، والبلد، والقرية، وأم القرى، وكُوْثَى، وأم كُوْثَى، وفاران أو قاران، والمقدسة، وقرية النمل، والحاطمة^(١)، والوادي، والحرم، أو الحرام، والعرش وبرّة، وصلاح^(٢)، وطيبة، ومعاد، والباسّة^(٣)، والناشّة^(٤)، والأمنية، والمرزوقة، وتهامة، والحجاز. اهـ.^(٥)

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (٧٨ / ٢): «وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأمّ رُحَم، وأم القرى، وصلاح، والعرش على وزن بدر، والقادس؛ لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناشّة: بالنون، وبالباء أيضا، والحاطمة، والنّساسة والرأس، وكُوْثَى، والبلدة، والبنّيّة، والكعبة». اهـ.

سبب تسميتها (مكة) :

قال ابن الجوزي - رَحِمَهُ اللهُ - في زاد المسير (٣٩١ / ٥): «فأمّا «مكة» فقال الزجاج:

(١) سميت الحاطمة لحطمها الجبابرة كما في كتاب إفادة الأنام.

(٢) بالبناء بالكسر على آخره كحذام.

(٣) سميت كذلك لأنها تهلك من ألحد فيها.

(٤) سميت كذلك لأنها تنش من ألحد فيها أي تطرده وتنفيه.

(٥) انظر «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» ١ (٢٠١ / ٢٠٣).



« مكة » لا تنصرف لأنها مؤنثة ، وهي معرفة ، ويصلح أن يكون اشتقاقها كاشتقاق « بكة » ، والميم تُبدل من الباء ، يُقال : ضربة لازم ، ولازب ، ويصلح أن يكون اشتقاقها من قولهم : امتك الفصيل ما في ضرع الناقة : إذا مصّ مصاً شديداً حتى لا يُبقي فيه شيئاً . فيكون سُميت بذلك لشدة الازدحام فيها ؛ قال : والقول الأول أحسن . وقال قطرب : مكة من تمككت المخ : إذا أكلته . وقال ابن فارس : تمككت العظم : إذا أخرجت مخه ؛ والتمكك : الاستقصاء ؛ وفي الحديث : « لا تمككوا على غرمائكم »^(١) .

وفي تسمية « مكة » أربعة أقوال :

أحدها : لأنها مثابة يؤمها الخلق من كل فجٍّ ، وكأنها هي التي تجذبهم إليها ، وذلك من قول العرب : امتك الفصيل ما في ضرع الناقة .

والثاني : أنها سُميت (مكة) من قولك : بككت الرجل : إذا وضعت منه ورددت نخوته فكأنها تمك من ظلم فيها ، أي تهلكه وتُنقصه ، وأنشدوا :

يا مَكَّةُ ، الفاجر مُكِّي مَكَّا ولا تُكِّي مَذِحْجاً وَعَكَّا

والثالث : أنها سُميت بذلك لجهد أهلها .

والرابع : لقلة الماء بها . اهـ .

وقال البغوي - (٢ / ٧٠ - ٧١) : « وأما مكة سميت بذلك لقلة مائها من قول العرب : مك الفصيل ضرع أمه وأمتكه إذا امتص كل ما فيه من اللبن ، وتدعى أم رحم لأن الرحمة تنزل بها » . اهـ .

(١) لم أقف عليه .



سبب تسمية مكة بـ (بكة):

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (٧٨ / ٢): «وقوله تعالى: ﴿بِكَّةٌ مُّبَارَكًا﴾ بِكَّة: من أسماء مكة على المشهور، قيل سُمِّيَتْ بذلك لأنها تَبْكُ أعناق الظلمة والجبابة، بمعنى: يُبْكُونُ بها ويخضعون عندها. وقيل: لأن الناس يَتَبَاكُونُ فيها، أي: يزدهمون.

قال قتادة: إن الله بَكََّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها». اهـ .

وقال البغوي - رَحِمَهُ اللهُ - (٧٠ - ٧١ / ٢): «قوله تعالى: ﴿بِكَّةٌ مُّبَارَكًا﴾ قال جماعة: هي مكة نفسها، وهو قول الضحاك، والعرب تعاقبت بين الباء والميم، فتقول: سَبَدَ رأسه وسَمَدَه وضربة لازب ولازم، وقال الآخرون: بكة موضع البيت ومكة اسم البلد كله.

وقيل: بكة موضع البيت والمطاف، سميت بكة: لأن الناس يتباكون فيها، أي يزدهمون يبك بعضهم بعضاً، ويصلي بعضهم بين يدي بعض ويمر بعضهم بين يدي بعض.

قال عبد الله بن الزبير: سميت بكة؛ لأنها تبك أعناق الجبابة، أي تدقها فلم يقصدها جبار بسوء إلا قصمه الله». اهـ .

سبب تسمية مكة بـ (أم القرى):

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (١٩١ / ٧): «وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة في مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزُّهري، أخبرنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عبد الله بن عَدِي بن الحمراء الزهري أخبره: أنه



سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - وهو واقف بالحزورة في سوق مكة - :
«والله، إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك
ما خرجت». اهـ .

وقال الطبري - رحمه الله - (١٠٦ / ١) : «وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مَكَّةَ سُمِّيَتْ أُمَّ
الْقُرَى ، لِتَقْدُمَهَا أَمَامَ جَمِيعِهَا ، وَجَمْعُهَا مَا سِوَاهَا ، وَقِيلَ : إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ ؛
لَأَنَّ الْأَرْضَ دُحَيْتٌ مِنْهَا ، فَصَارَتْ لْجَمِيعِهَا أُمًّا ». اهـ .

وقال - رحمه الله - (٥٣١ / ١١) عن السدي : ﴿ لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾
، أما «أم القرى» فهي مكة، وإنما سميت ﴿ أُمَّ الْقُرَى ﴾ ؛ لأنها أول بيت وضع
بها». اهـ .

وقال البغوي - رحمه الله - (١٦٨ / ٣) : «سميت أم القرى؛ لأن الأرض دحيت
من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل، وأراد أهل أم القرى
﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي: أهل الأرض كلها شرقا وغربا». اهـ .

وقال ابن الجوزي - رحمه الله - في زاد المسير - (٣٧٥ / ٢) : «وفي تسميتها بأم
القرى أربعة أقوال .

أحدها : أنها سميت بذلك لأن الأرض دُحيت من تحتها ، قاله ابن عباس .

والثاني : لأنها أقدمها ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : لأنها قبلة جميع الناس ، يؤمونها .

والرابع : لأنها كانت أعظم القرى شأنًا ، ذكرهما الزجاج». اهـ .



أسماء الكعبة المشرفة

وأسباب تسميتها بهذه الأسماء:

من أسماء الكعبة: البيت الحرام:

قال تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧] .

والبيت العتيق:

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدْوَرَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩] .

وأول بيت:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦] .

سبب تسمية البيت بالكعبة:

قال البغوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٣/ ١٠٣ - ١٠٤): ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ قال مجاهد: سميت كعبة لتربيعها، والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة، قال مقاتل: سميت كعبة لانفرادها من البناء، وقيل: سميت كعبة لارتفاعها من الأرض، وأصلها من الخروج والارتفاع، وسمي الكعب كعبا لتوئته، وخروجه من جانبي القدم، ومنه قيل للجارية إذا قاربت البلوغ وخرج ثديها: تكعبت.



وسمي البيت الحرام: لأن الله تعالى حرّمه وعظّم حرّمته. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تعالى حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض». اهـ.

وقال الشيخ المؤرخ ابن الغازي المكي الحنفي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في كتابه: إفادة الأنام (١/ ٢٨٠-٢٨١) وفي تسمية البيت كعبة أقوال؛ فقليل لتكعبه أي تربعه، يقال: بُردُ مكعب، إذا طوي مربعا، وقيل: لعلوه ونتوئه، ومنه سمي الكعب كعبا؛ لتوئه وخروجه من جانب القدم، يقال: تكعبت الجارية إذا خرج نهداها، وقيل لانفرادها عن البيوت وارتفاعها...

وذكر الأزرقى في تاريخه (١/ ٢٨٠) أن الناس كانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيما للكعبة، فأول من بنى بيتا مربعا: حميد بن زهير، فقالت قريش:

بنى حميد بيتا إما حياة أو موتا

وذكر أيضا أن شيبة بن عثمان كان يُشرف، فلا يرى بيتا مشرفا على الكعبة إلا أمر بهدمه». اهـ.

سبب تسمية الكعبة بالبيت الحرام :

سمي البيت حراما لحرّمته وعظّمته وحرمة الإحداث فيه أكثر من غيره؛ ولأنه حرّم فيه أمور لم تحرم في غيره، لا سيما عند أداء مناسك الحج والعمرة.

قال البغوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٣/ ١٠٤): «وسمي البيت الحرام: لأن الله تعالى حرّمه وعظّم حرّمته. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تعالى حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض». اهـ.

وقال الشيخ المؤرخ ابن الغازي المكي الحنفي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في كتابه: إفادة الأنام (١/ ٢٨٢) قال ابن ظهيرة في الجامع اللطيف (ص ٢٧) وأما تسميته بالبيت



الحرام فلأن الله حرمه وعظمه، وحرم أن يصاد صيده، وأن يختلج خلاله، وأن يعضد شجره، وأن يتعرض له بسوء.

والمراد بتحريم البيت سائر الحرم». اهـ.

سبب تسمية الكعبة بالبيت العتيق؛

قال الطبري — رَحِمَهُ اللَّهُ — (١٨ / ٦١٤): «واختلف أهل التأويل في معنى قوله: (العتيق) في هذا الموضع، فقال بعضهم: قيل ذلك لبيت الله الحرام، لأن الله أعتقه من الجبابة أن يصلوا إلى تخريبه وهدمه». اهـ..

وقال ابن كثير — رَحِمَهُ اللَّهُ — (٥ / ٤١٨): «وقال قتادة، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [قال] (٥): لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وقال ابن أبي نَجِيج وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرده أحد بسوء إلا هلك.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهري، عن ابن الزبير قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابة». اهـ..

قال ابن ظهيره: «اختلف في تسميته بالبيت العتيق، فقيل: لأن الله أعتقه



من الجبابة فلم يظهر عليه جبار، وقيل لقدمه؛ لأنه أول بيت وضع كما تقدم والعتيق القديم. قاله الحسن.

وقيل: لأنه كريم على الله؛ لأنه لم يجز عليه ملك لأحد من خلق الله، فلا يقال بيت فلان، وإنما يقال بيت الله.

وقيل: لأنه أعتق من الغرق لما أنه رفع زمن الطوفان.

وقيل: لشرفه سمي عتيقاً.

وقيل: لأن الله يعتق فيه المؤمنين من العذاب.

وقيل: لأنه يعتق زائره من النار، وهو قريب مما قبله، وقيل غير ذلك.

والقول الأول هو المعتمد». اهـ. (١)

سبب تسمية البيت الحرام بـ (أول بيت):

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦)

[آل عمران: ٩٦].

قال البغوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٢/ ٦٩) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتنا، وهو أفضل من الكعبة وأقدم، وهو مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٦).

قال تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا بُرَّهِيْمٌ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وليس شيء من هذه الفضائل لبيت المقدس ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا

(١) انظر كتاب إفادة الأنام (١/ ٢٨٢-٢٨٣).



وَهْدَى لِلْعَلَمِينَ ﴿٩٦﴾ [آل عمران : ٩٦] .

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٢ / ٧٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ، كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ [آل عمران : ٩٦-٩٧]: «يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، أَي: لِعُمُومِ النَّاسِ، لِعِبَادَتِهِمْ وَنُسُكِهِمْ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يَعْنِي: الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ [عَلَيْهِ السَّلَامُ] الَّذِي يَزْعُمُ كُلُّ مَنْ طَائِفَتِي النَّصَارَى وَالْيَهُودُ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ، وَلَا يَحْجُونَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَنَادَى النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مُبَارَكًا﴾ أَي وُضِعَ مُبَارَكًا ﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلُ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى». قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً». قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكْتَ الصَّلَاةَ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ». وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، بِهِ. اهـ .

وقال الشيخ المؤرخ ابن الغازي المكي الحنفي في كتابه إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام (ص ٢٧٥): قال ابن ظهيرة^(١): قال الكواشي: سبب نزول هاتين الآيتين أن اليهود قالوا للمسلمين: قبلتنا قبل قبلكم، أنزل الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ واختلفوا في معنى كونه أول بيت، فقيل: أول بيت وضعه الله للطاعات، وموضعاً للطواف.

(١) الجامع اللطيف (ص: ١٦-٢٨).



ويدل عليه ما روي عن علي أنه سئل هو أول بيت وضع؟ قال: كان قبله بيوت، ولكنه أول متعبد.

وقيل: أول بيت بنته الملائكة. فلما حجه آدم قالت الملائكة: برّحجك فإننا قد حججنا قبلك بألفي عام، وقيل: أول بيت بناه آدم، وقيل أول بيت بناه إبراهيم، وقيل أول بيت حج بعد الطوفان وقيل: أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق السماوات والأرض، فهذه ستة أقوال. اهـ.

هل بيت الله الحرام أول بيت بني في الأرض؟

ليست الكعبة أول بيت بني على وجه الأرض، فهناك بيوت بنيت قبله، وإنها معني (أول بيت) أي للعبادة.

قال الطبري — رَحِمَهُ اللهُ — (١٩ / ٦): «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: تأويله: إنّ أول بيت وضع للناس، يُعبد الله فيه مباركاً وهدى للعالمين، الذي ببكة. قالوا: وليس هو أول بيت وضع في الأرض، لأنه قد كانت قبله بيوت كثيرة...

وقال آخرون: بل هو أول بيت وضع للناس.

ثم اختلف قائلو ذلك في صفة وضعه أول.

فقال بعضهم: خلق قبل جميع الأرضين، ثم دُحيت الأرضون من تحته...

وقال آخرون: موضع الكعبة، موضع أول بيت وضعه الله في الأرض...

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما قال جل ثناؤه فيه: إنّ أول



بيت مبارك وهُدًى وُضع للناس، للذي ببكة. ومعنى ذلك: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، أي: لعبادة الله فيه ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى﴾، يعني بذلك: ومآبًا لُنُسك الناسكين وطواف الطائفين، تعظيما لله وإجلالا له ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ لصحة الخبر بذلك عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذلك ما:

٧٤٣٤- حدثنا به محمد بن المثنى قال، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر قال، قلت: يا رسول الله، أيُّ مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام. قال: ثم أيُّ؟ قال: المسجد الأقصى. قال: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة» (١). اهـ.

وقال الشوكاني- رَحِمَهُ اللَّهُ- في فتح القدير (١/ ٤٩٧): ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، فقلوه: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ صفة لبیت، وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ فنبه تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره، وقد اختلف في الباني له في الابتداء، فقيل: الملائكة، وقيل: آدم، وقيل: إبراهيم، ويجمع بين ذلك بأول من بناه الملائكة، ثم جدده آدم، ثم إبراهيم. وبكة علم للبلد الحرام، وكذا مكة. اهـ.

وقال السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ- (١/ ١٣٨): «يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ اهـ.

(١) والحديث في صحيح البخاري.

**عدد بناء الكعبة المشرفة:**

قال العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ محمد الأسدي في كتابه إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام (ص ٨٤ - ٨٧): «اعلم أن في عدد بناء الكعبة الشريفة خلافاً كبيراً، ويتحصل من مجموعها أنها بنيت إحدى عشرة مرة:

الأولى: بناء الملائكة.

الثانية: بناء آدم، وقيل: إنه قبل بناء الملائكة.

الثالثة: بناء أولاد آدم.

الرابعة: بناء الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام.

الخامسة: بناء العمالق.

السادسة: بناء جرهم.

السابعة: بناء قصي بن كلاب.

الثامنة: بناء قريش.

التاسعة: بناء ابن الزبير.

العاشر: بناء الحجاج بن يوسف.

الحادية عشر بناء السلطان مراد». اهـ. (١)

فأما بناء الملائكة للبيت فكان ذلك حينما قال لهم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

(١) انظر كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) (١/ ٢٨٤ - ٢٨٥).



ثم أمرهم أن ينواله بيتا في الأرض على مثال البيت المعمور الذي في السماء، وأمر أن يطاف به كما يطاف بالبيت المعمور^(١).

وأما بناء آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ للبيت فقد كان ذلك حينما أُهبط من الجنة إلى الأرض، فأمره الله أن يبني له بيتا في الأرض يطاف به كما تطوف الملائكة حول العرش على خلاف في ذلك كما سيأتي قريبا^(٢).

وضع مكة وموقعها:

قال الفاسي في شفاء الغرام: (١/ ٤١): «مكة المشرفة بلدة مستطيلة كبيرة، تسع من الخلائق ما لا يحصيهم إلا الله عز وجل في بطن وادٍ مقدس، والجبال محدقة بها كالسور لها.

وفي الإعلام (١٠-١١) اعلم أن بلد الله الحرام مكة المشرفة زادها الله تعالى شرفاً وتعظيماً بلدة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة، ومنها من جانب جدة موضع يقال له: الشبيكة، ومن جانب اليمن قرب مولد سيدنا حمزة، وعرضها من وجه جبل يقال له الآن: جبل جزل إلى أكثر من نصف جبل أبي قبيس، ويقال لهذين الجبلين: الأخشبان». أهـ. (٣)

وفي الإعلام (ص ١١-١٣): «وأما موضع الكعبة المعظمة فهو في وسط المسجد الحرام، والمسجد الحرام بين هذين الجبلين في وسط مكة، ولها شعاب كثيرة مزورة، إذا أشرف الإنسان من جبل أبي قبيس لا يرى جميع مكة بل يرى أكثرها، وهي تسع خلقا كثيرا خصوصا في أيام الحج، فإنه يرد إليها قوافل عظيمة من مصر والشام وحلب وبغداد وبصرة والحسا ونجد واليمن ومن بحر الهند والحبشة والشحر وحضرموت وعربان جزيرة العرب وطوائف

(١) انظر المصدر السابق.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) انظر كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) (١/ ٢٥٦-٢٥٧).



لا يحصيهم إلا الله تعالى فتسعههم جميعهم، وهي تزيد عمارتها وتنقص حسب الأزمان، وبحسب الولاة والأمن والخوف والغلاء والرءاء». (١)

وقد ذكر بعض أهل الجغرافيا أن مكة في وسط العالم، والمسجد الحرام في وسط مكة، والكعبة في وسط المسجد الحرام، وهذا إن ثبت فهو مما يزيد شرفاً ويزيد الناظر إيماناً بحكمة الحكيم سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد أشار إلى ذلك المفسر الطبري والمفسر البغوي في تفسيريهما بالآتي:

قال البغوي - رَحِمَهُ اللهُ - (٣/ ١٦٨): «سميت أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل، وأراد أهل أم القرى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: أهل الأرض كلها شرقاً وغرباً». اهـ.

وقال الطبري - رَحِمَهُ اللهُ - (١/ ١٠٦): «وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ مَكَّةَ سُمِّيَتْ أُمَّ الْقُرَى، لِتَقْدُمِهَا أُمَامَ جَمِيعِهَا، وَجَمْعُهَا مَا سِوَاهَا، وَقِيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْأَرْضَ دَحِيَّتٌ مِنْهَا، فَصَارَتْ لْجَمِيعِهَا أُمًّا». اهـ.

ومعنى (دحيت) أي: بسطت كما في تفسير ابن كثير والسعدي عند قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحِيَّتَا﴾ [النازعات: ٣٠].

فوائد زيارة البيت:

إن لزيارة البيت فوائد عديدة للعباد نذكر طرفاً منها:

منها: أداء ما افترض الله على عباده من أداء مناسك الحج والعمرة، فمن حج واعتمر فقد برئت ذمته وأدى ما عليه ورجع كيوم ولدته أمه.

ومنها: مضاعفة الأجور في العبادات من طواف وسعي وصلاة وصدقات وذكر الله عَزَّجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ

(١) انظر كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) (١/ ٢٥٩).



إِبْرَهُمْ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَهُمْ - وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتًا لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥]

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٦٥): ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعا يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدينية، يترددون إليه، ولا يقضون منه وطرا، وجعله ﴿وَأَمْنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم، فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمة وتعظيما، وتشريفا وتكريما.. اهـ..

وتقدم حديث جابر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه، ويزيد أجر العمرة في رمضان، لما روى البخاري ومسلم عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «فَإِنْ عُمَرَةً فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي».

وروى الطبراني عن المنكدر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ طَافَ حَوْلَ الْبَيْتِ أُسْبُوعًا لَا يَلْغُو فِيهِ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ يُعْتَقُهَا» صححه الألباني في صحيح الترغيب (١١٤٠) وفي السلسلة الصحيحة بنحوه برقم (٢٧٢٥). ومعنى «من طاف بالبيت أسبوعاً لا يلغو» أي سبعة أشواط.

وروى ابن خزيمة وابن حبان وغيرهما عن عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: قال رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة لا يضع قدماً ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة وكتب له بها حسنة» صححه الألباني انظر حديث رقم: (٦٣٨٠) في صحيح الجامع.



ومنها: أن زيارة البيت من أعظم القربات، ويزيد في الإيمان؛ لأن الإيمان يزيد بفعل الطاعات، وزيارته تُذكر بالآخرة، وذلك حينما يرى العبد تلك الجموع فإنه يتذكر يوم العرض لآسيا والناس يلبسون الإحرام كلهم على حد سواء الرئيس والمرؤوس، وأن ثياب الإحرام أيضاً يذكر بالموت إذ أنه يشبه الكفن أو يقاربه.

ومنها: أن المسلم يلتقي بكثير من المسلمين، ويزاورهم ويتعرف على بعضهم، فيشعر بالإخوة الإيمانية، والمحبة، وجمع الكلمة، والشعور بنعمة الإسلام وفضله، والشعور بوحدة المسلمين، وأن العاقبة لهم، والنصر والتمكين حليفهم، إذ يقصدون مكاناً واحداً، ويعبدون رباً واحداً، ويستقبلون قبلة واحدة، ويتبعون نبياً واحداً، وهم من أماكن شتى في أطراف المعمورة عربهم وعجمهم، مما يبعث في قلوبهم حب هذا الدين، وحب هذا البيت، والإكثار من زيارته ومعاهدته بين الحين والآخر.

ومن فوائد زيارة المسجد الحرام والاجتماع فيه: أن في ذلك إظهاراً للشعائر الله، ودعوة لغير المسلمين لا اعتناق دين الإسلام؛ فإن الكفار إذا أدركوا عظمة البيت، ورأوا الوافدين إليه من كل فج عميق، لآسيا وهم يؤدون تلك المناسك العظيمة ويزدحمون عليها ليلاً ونهاراً، ربما يبعث ذلك في قلوبهم حب هذا الدين، فيقذف الله الهداية في قلوب من شاء منهم، فيسلم الله رب العالمين، فإن بعض الكفار أسلم بمجرد زيارة واحدة لبيت الله، كما حصل من ثمامة بن أثال - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فإنه لا بأس من السماح للكافر عند الحاجة في دخول المسجد الحرام مع عرض الإسلام عليه، فلقد أسر ثمامة وكان مشركاً وربط في المسجد ثلاثة أيام، فرأى من عظمة البيت وفضل الإسلام وحسن خلق النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ما جعله يسلم وصار من أنصار الإسلام، فقد روى الإمامان البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَيْلاً قَبْلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ



عجائب وأسرار

بَرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ. فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ». فَقَالَ عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ إِنْ تَقْتُلَ تَقْتُلَ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ « مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ». قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ تَقْتُلَ تَقْتُلَ ذَا دَمٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ « مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ». فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ تَقْتُلَ تَقْتُلَ ذَا دَمٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ». فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهِكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنْ خَيْلِكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ : أَصَبَوْتَ ؟، فَقَالَ : لَا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

* ومن فوائد زيارة المسجد الحرام أن ذلك من أسباب الغنى وذهاب الفقر، لما روى الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَالذَّهَبُ، وَالْفِضَّةُ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ



إِلَّا الْجَنَّةَ». صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٠٠).

* ومن فوائد زيارة البيت الحرام أن الحج والعمرة يكفران الذنوب، وهما سبب في دخول الجنة، لما روى البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ».

* ومن فوائد زيارة البيت أنها اجتمعت فيه أسباب كثيرة لإجابة الدعاء: **منها:** أنه يرجى إجابة الدعاء في بيت الله الحرام لفضل المكان وشرفه ومضاعفة الأجر فيه.

ومنها: وجود الكعبة فيه بحيث أن الداعي سيستقبل الكعبة مباشرة عند الدعاء، ومن المعلوم شرعا أن استقبال الكعبة من أسباب الاستجابة.

ومنها: حضور القلب ووجود السكينة والطمأنينة في البيت الحرام، وهذه من أسباب الاستجابة.

ومنها: فضل الصلاة فيه على غيره، فيكون الدعاء في أدبار الصلوات، وفي السجود، وبين الأذان والإقامة أكد في إجابة الدعاء؛ وذلك لأنها من أسباب الإجابة إضافة إلى أنها في أفضل الأماكن.

ومنها: السفر إلى بيت الله الحرام ودعوة المسافر مستجابة.

ومنها: فضل الدعاء أثناء الطواف بالكعبة، وأثناء السعي بين الصفا والمروة ويوم عرفة وغير ذلك.

والأدلة على ما تقدم معلومة، وقد ذكرت كثيراً منها في كتابي (اغتنام فعل الخيرات في المواسم والمناسبات) عند باب اغتنام أوقات الإجابة، فراجع إن شئت.



أسرار السعي بين الصفا والمروة:

إن المعتمر حينما يؤدي منسك السعي بين الصفا والمروة إنه ليتذكر قصة تلك المرأة الصالحة المباركة وابنها إسماعيل - عَلَيْهِمَا السَّلَام - فإنها أول من سعت بين الصفا والمروة، كما تقدم في حديث ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - المتقدم.

فكانت قصة هاجر وابنها من العجائب العجيبة والمعجزات الجليلة والكرامات الإلهية، فأراد الله أن يكرمهما ويرفع قدرهما ويعلي ذكرهما إلى قيام الساعة، فما من ساعي يسعى بين الصفا والمروة إلا ويتذكر هاجر وابنها - عَلَيْهِمَا السَّلَام - وأراد الله أن يكون ذلك الوادي أشرف الأودية وذاتك الجبلان الصفا والمروة أشرف الجبال، وذلك المكان ككل أطهر الأمكنة، وأن يكون مهبطاً للوحي، ومبعثاً للنبوّة، وإقامةً لدين الله، وإظهاراً لشعائر الله.

والناظر إلى قصة هاجر - عَلَيْهِمَا السَّلَام - يرى العجب العجائب، فمن النساء تستطيع أن تصبر كما صبرت هاجر؟ وتحمل الغربة والوحشة والجوع والعطش؟، لكنه الإيمان بالله والثقة بالله والتصديق بوعده الله، وإلا فإنه موقف عصيب قلّ من يثبت عنده من الرجال فضلاً عن النساء، وهذه امرأة ضعيفة تُترك هي وابنها الطفل الصغير بين جبلين صغيرين في وادٍ غير ذي زرع لا جليس ولا أنيس ولا مغيث إلا الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، ثم جاء الفرج بعد الشدة، فأرسل الله روح القدس - عَلَيْهِ السَّلَام - فغمز بعقبه الأرض، وانبعث ماء زمزم، فجعلت هاجر تحقن الماء بيديها وتحوطه بكفيها، ولو تركته لكانت زمزم عيناً معيناً وسيلاً جارياً على وجه الأرض، فجعلت تشرب منه وتسقي طفلها وترضعه، وبدأت الحياة في ذلك الوادي المبارك من ذلك الحين، وجاءت بعض قبائل العرب إلى هاجر - عَلَيْهِمَا السَّلَام - واستأنست بهم، وعاشت معهم، وترعرع ابنها بينهم، فعلموه العربية وزوجوه منهم، فيا سبحان الله! ما أطف



الله بعباده الصالحين! ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] .

وصار من شأن ذلك الوادي ومن شأن ذينك الجبلين أن جعلهم الله من شعائره العظيمة، يؤدي فيهم عبادة عظيمة، لا تتم العمرة إلا بها وهي: السعي بين الصفا والمروة، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] وكل ذلك بركة تلك المرأة الطيبة، وإكراماً لها من أكرم الأكرمين سبحانه، فما ألطفه بعباده وما أكرمه لأوليائه، فهذا هو السر في وضع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وهذا هو السر في السعي بين الصفا والمروة، وكل هذا بركة دعوة إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَام - .

فصار السعي بين الصفا والمروة من شعائر الله العظيمة، وأعلام دينه القويمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨] .

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٧٦): «يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أي أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: ﴿ وَمَنْ يُعْظِمْ شَعِيرَةً لِلَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٣٢) فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره، من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «خذوا عني مناسككم» . اهـ .

وقد تقدم حديث ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في قصة سعي هاجر - عَلَيْهِ السَّلَام - في ذلك الوادي بين الصفا والمروة.



لبيك اللهم لبيك

مشروعية التلبية:

يُشرع للمعتمر أن يلبي ويرفع بها صوته من حين يحرم من الميقات إلى أن يطوف بالبيت، ويشرع التلبية للحاج من حين أن يهل بالحج حتى يرمي جمره العقبة يوم النحر، لما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَهْلُ مُلَبِّدًا يَقُولُ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ». لَا يَزِيدُ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ. وَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - كَانَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَرْكُعُ بِذِي الْحَلِيفَةِ رُكْعَتَيْنِ. ثُمَّ إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ النَّاقَةُ قَائِمَةً عِنْدَ مَسْجِدِ الْحَلِيفَةِ أَهْلُ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقُولُ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَهْلُ بِأَهْلَالِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَيَقُولُ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ لَبَّيْكَ وَالرَّغْبَاءُ إِلَيْكَ وَالْعَمَلُ».

معنى التلبية والحكمة منها:

إن من تعظيم الله تعالى الإكثار من ذكره وشكره وتلبية أمره وهذا هو المقصود من التلبية. ومعناها أي طاعة لك بعد طاعة واستجابة لك بعد استجابة.

قال ابن بطال - رَحِمَهُ اللَّهُ - في شرح صحيح البخاري - (٧/ ٢٦٠): «وقال أهل اللغة: معنى لبيك لبيك: إجابة بعد إجابة، من قولهم: أَلَبَّ بِالْمَكَانِ، إِذَا أَقَامَ بِهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا مُقِيمٌ عَلَى طَاعَتِكَ وَإِرَادَتِكَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: سَعْدَيْكَ،



أي إسعاداً لك بعد إسعاد، أي أنا مساعد لك ومتابع لإرادتك». اهـ..

وقال المناوي - رَحِمَهُ اللهُ - في فيض القدير (١/ ١٢٧): «لييك اللهم لبيك أي إجابة بعد إجابة ولزوما لطاعتك بعد لزوم، فالتشنية للتأكيد لا تشنية حقيقية وأصل التلبية إجابة النداء». اهـ.

وقال ابن بطال - رَحِمَهُ اللهُ - في شرح صحيح البخارى - (٤/ ٢٢٢): «قال المهلب: معنى التلبية، إجابة دعوة إبراهيم بالحج إذ أمره الله بالأذان به، وهو من المواعيد المنتجزة؛ لأنه تعالى وعده أن يأتوه رجالاً وعلى كل ضامر». اهـ. ويُستحب رفع الصوت بها إظهاراً لشعائر الله كما رفع النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بها صوته (لييك لا شريك لك) أي توحيداً لك وإفراداً لك بالعبادة دون غيرك من المعبودات الباطلة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

وقوله: (إن الحمد) أي إن الثناء والحمد له وحده، فيثني على الله بذكر أوصاف الجلال والجمال المأخوذة من الأسماء الحسنى والصفات العليا مع المحبة والتعظيم.

وقوله: (والنعمة) فيه الاعتراف بالنعمة الكثيرة، والأرزاق الوفيرة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وشكره عليها، ونسبتها إليه وحده، وصرفها فيما يحبه ويرضاه، وأعظمها نعمة الإسلام والسُّنَّة، ونعمة هذا البيت والتوفيق لزيارته.

وقوله: (لك والملك) فيه الاعتراف بأن الملك ملكه، والعبيد عبيده، يتصرف فيهم كيف يشاء، فلا معقب لحكمه، ولا شريك له في ملكه، فيجب على الممالك طاعة مالِكهم ومربيهم، والمنعم عليهم بسائر النعم الدنيوية والدينية، فلا يجوز لهم أن يخالفوا أمره الشرعي، كما أنهم لا يستطيعون الخروج عن أمره الكوني.



دعوات أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند البيت:

إن من بركة هذا البيت إجابة الله لدعوة إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فيه، فقد دعا بخمس دعوات وهي:

- * أن يُقبل الله بقلوب العباد على البيت الحرام.
- * أن يرزقهم ويبارك لهم في أرزاقهم .
- * وأن يؤمنهم في بلدهم مكة.
- * وأن يجعلها وذريتها مسلمين، وأن يعلمهم دينهم ويريهم مناسكهم، ويتوب عليهم.
- * وأن يبعث فيهم رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة .

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ﴾ [إبراهيم : ٣٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۚ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۚ﴾ [البقرة : ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۚ﴾ [البقرة : ١٢٨].



وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وروى البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا وَحَرَّمَتْ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مَدَّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِمَكَّةَ».

فاستجاب الله تلك الدعوات المباركات، فجعل تلك البلاد عمومًا والحرم المكي خصوصًا، والمسجد الحرام على وجه الخصوص من آمن البلدان والأماكن، حتى آمن فيه الوحش والصيد فلا يعتدى عليه، وسيأتي قريبًا ذكر مبحث مستقل في ذكر أمن البيت الحرام، واستجاب الله دعاء الخليل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فأدر على أهل تلك البلاد الأرزاق من الأموال والثمار، فبارك في أموالهم وأولادهم وأعمالهم، وصارت تلك البلاد من أغنى دول العالم، فجعل الله فيها من البركة ما لا يعلمه إلا الله، بركة في المآكل، وفي المشارب، وفي السكن، وفي العبادات، وفي الأوقات، وغير ذلك بركة ذلك البيت وبركة دعوة إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

واستجاب الله لخليله فأقبل بقلوب العباد على بيته الحرام، ولو تيسر السفر لجميع المسلمين إلى البيت الحرام لما تخلف أحد منهم، ولكن وضع المكان لا يسمح بذلك إذ لو فتح المجال لجميع الناس لتضرر الناس من الزحام، فاضطرت الحكومة السعودية إلى وضع أنظمة وترتيبات للتخفيف من حدة الزحام من أجل يحج المسلمون ويعتَمرون بسلام.

واستجاب الله دعوة الخليل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فبعث لهم رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والسُّنة، وهو من قریش يعرفون صدقه ونسبه وصلاحه وهو محمد -



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فله الحمد والمنة.

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٤٢٧) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه. فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم وجعل فيه سرا عجبيا جاذبا للقلوب، فهي تحجه ولا تقضي منه وطرا على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة». اهـ .

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٤/ ٥١٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

إلى أن قال - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٤/ ٥١٤): «وقوله: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام». اهـ ..



فصارت الثمار تنقل من حول مكة إلى مكة استجابة لدعوة إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَام - قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) [القصص: ٥٧].

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٢٤٧/٦) في قوله: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

وقال السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٤٢٧/١): ﴿وَأَرْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت والثمار فيها متوفرة والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب». اهـ.

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٤٤٣/١) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٢٩).

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم - أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم. وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَر الله السابق في تعيين محمد - صلوات الله وسلامه عليه - رسولاً في الأميين إليهم، إلى سائر الأعجمين، من الإنس والجن». اهـ.

وقال الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٨٢/٣): «القول في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾.

قال أبو جعفر: وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى»^(١). اهـ.

(١) صححه الألباني انظر رقم (١٤٦٣) في صحيح الجامع.



وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللهُ - (١/٦٦): في تفسير الآية السابقة :

« أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل فيه النفع العميم.

ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته، خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علمناها على وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ. يحتمل أن يكون المراد بالمناسك: أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد ما هو أعم من ذلك وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج، تغليباً عرفياً، فيكون حاصل دعائهما، يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح، ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالوا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) اهـ



وقفات مع قول إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ -

﴿ فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾

ونستخرج من هذه الآية ثلاثة أسئلة ثم نجيب عنها وهي كالتالي:

السؤال الأول: لماذا قال: الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ «أفئدة» ولم يقل قلوب؟ .

السؤال الثاني: لماذا قال: «من الناس» ولم يقل: «جميع الناس»؟ .

السؤال الثالث: لماذا قال: «تهوى» ولم يقل: «تأتي»؟ .

الجواب:

قوله: ﴿ فَأَجْعَلْ أَفْئِدَةً ﴾:

عبر إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بالأفئدة وأفئدة جمع فؤاد ؛ لأن الفؤاد أخص من القلب ، ولأن القلب يتقلب، فإذا ثبت القلب على الخير أفاد صاحبه في الدنيا والآخرة، وسمي فؤادًا والله أعلم.

وهو محل صلاح الإنسان، و مكان الإخلاص والمحبة والتعظيم.

قال القاضي اليحصبي المالكي - رَحِمَهُ اللهُ - في مشارق الأنوار على صحاح الآثار - (٢/ ١٤٤) عند مادة (ف ا د) : «قوله يرجف فؤاده وأهل اليمن أضعف ويروى ألين قلوبا وأرق أفئدة، الفؤاد القلب، فهما لفظان بمعنى كرر لفظهما لاختلافه تأكيداً، وقيل: الفؤاد عبارة عن باطن القلب، وقيل: الفؤاد عين القلب، وقيل: القلب أخص من الفؤاد، وقيل: الفؤاد غشاء القلب والقلب جثته». اهـ .



عجائب وأسرار

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢].

وفي الحديث عن عُمَيْدٍ بنِ عَامِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «أَهْلُ الْيَمَنِ أَرْقُ وَالْيَمَنُ أَفْنَدَةٌ وَأَسْمَعُ طَاعَةً» رواه أحمد وغيره.

وفي صحيح مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَقْوَامٌ أَفْنَدْتَهُمْ مِثْلُ أَفْنَدَةِ الطَّيْرِ».

قال ابن الجوزي - رَحِمَهُ اللَّهُ - في كشف المشكل من حديث الصحيحين - (١/١٠٢٢): «يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل أفندة الطير» هؤلاء قوم رقت قلوبهم فاشتد خوفهم من الآخرة وزاد على المقدار فشبهم بالطير التي تفرع من كل شيء وتخافه». اهـ.

نلاحظ في هذه النصوص أن التعبير جاء بلفظ (الفؤاد)؛ لأنه أبلغ من التعبير بلفظ (القلب)، فصار لبيت الله الحرام من المحبة والتعظيم في قلوب المسلمين ما لا يوجد لغيره من الأماكن، حيث جعلهم يهونون إلى بيت الله بقلوبهم وقال بهم، وذلك ببركة دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال المفسر الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١٣/٦٩٨): «وَقَوْلُهُ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ يُخْبِرُ بِذَلِكَ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ سَأَلَهُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَجْعَلَ قُلُوبَ بَعْضِ خَلْقِهِ تَنْزِعُ إِلَى مَسَاكِنِ ذُرِّيَّتِهِ الَّذِينَ أَسْكَنَهُمْ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِهِ الْمُحَرَّمِ، وَذَلِكَ مِنْهُ دُعَاءُ لَهُمْ بِأَنْ يَرْزُقَهُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ». اهـ.

قوله: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾:

وعبر إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بقوله: ﴿أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ ولم يقل: «أفندة الناس» فأتى بمن التبعيضية ليخص المسلمين فقط دون غيرهم، ولو قال: «أفندة الناس» لاستجاب الله دعوته فشملت المسلمين وغير المسلمين وحج



البيت المسلمون والكفار.

قال المفسر ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (٥١٤ / ٤) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: «قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير: لو قال: «أفئدة الناس» لآزدهم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون». اهـ.. وذكر نحو هذا الطبري والبغوي والشوكاني.

وقوله: ﴿تَهْوِي﴾:

وعبر إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - بقوله: «تهوي» ولم يقل: «تأتي»؛ لأن تهوي أبلغ من تأتي، إذ أن معنى تهوي: أي تسرع وتشتاق وتحب وتميل، فاستجاب الله دعوته فتسارع الناس إلى بيت الله الحرام زرافات ووحدانا.

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - (٤١٤ / ٥) في قوله تعالى: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: «فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار». اهـ.

وقال الطبري - رَحِمَهُ اللهُ - (٧٠٠ / ١٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَوْلُهُ: ﴿فَجَعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ قَالَ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ أَنَاسًا مِّنَ النَّاسِ يَهْوُونَ سُكْنَى أَوْ سَكْنَ مَكَّةَ». اهـ.

وقال المفسر البغوي - رَحِمَهُ اللهُ - (٣٥٧ / ٤) ﴿فَجَعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: «الأفئدة: جمع الفؤاد ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تشتاق وتحن إليهم.

قال السدي: معناه أمل قلوبهم إلى هذا الموضع». اهـ..

وقال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللهُ - (٤٢٧ / ١) ﴿فَجَعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.



عجائب وأسرار

فأجاب الله دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة». اهـ ..

شوق الناس إلى زيارة البيت والتردد عليه :

إن من عجائب البيت أن نفس المؤمن مشتاقة لزيارته مراراً وتكراراً ، لا تشبع من زيارته ، ولا من الطواف حوله ، بل وتتمنى العكوف عنده ، وعدم مفارقتها ، لما أودع الله في القلوب من محبته وتعظيمه ، فإن زائريه يزهدون في دنياهم ، وتنشرح صدورهم ، وتطمئن قلوبهم عند البيت ، وتسكن جوارحهم ، وتدمع أعينهم فرحاً ، وينسون همومهم ، فيفضلون البقاء عنده طلباً للثواب ، وتبركاً بالعبادات حوله ، وهذه من الأسرار التي أودعها الله في بيته الحرام .

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٥ / ٤١٤) عند قوله تعالى : ﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧] : « وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبراهيم ، حيث قال في دعائه : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف ، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار » . اهـ ..

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (١ / ٤١٢) : « قال العوفي عن ابن عباس لا يقضون فيه وطراً يأتونه ثم يرجعون إلى أهلهم ثم يعودون إليه » اهـ .

بمعنى أنهم لا يشبعون من زيارته والطواف حوله ، لما حباه الله من الأمن والإيمان ، والسعادة والاطمئنان ، فكلما فارقه اشتاقوا إليه ورجعوا إليه ؛ لأنهم



وجدوا بغيتهم، وأدركوا جنتهم في حياتهم الدنيوية.

ثم قال - رَحِمَهُ اللهُ - : (١/ ٤١٣): «ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرًا من كونه مثابة للناس، أي: جعله محلاً تشاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضي منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم، عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قوله: ﴿فَجَعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿رَبَّنَا وَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ ﴿٤٠﴾ [إبراهيم: ٣٧ - ٤٠] اهـ .

وقال البغوي - (١/ ١٤٦): «قال الله تعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ يعني الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ مرجعاً لهم، قال مجاهد وسعيد بن جبير: يأتون إليه من كل جانب ويحجون، وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: معاذاً وملجأً وقال قتادة وعكرمة: مجمعا ﴿وَأَمْنًا﴾ أي مأمناً يأمنون فيه من إيذاء المشركين، فإنهم ما كانوا يتعرضون لأهل مكة ويقولون: هم أهل الله ويتعرضون لمن حوله كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال ابن الجوزي - رَحِمَهُ اللهُ - في زاد المسير - (١/ ١٢٢): في تفسير الآية السالفة الذكر ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي «أن الناس يعودون إليه مرة بعد مرة». اهـ .

زيارة البيت من أسباب الأرزاق ونفي الفقر:

ومن بركة البيت أن الله تعالى جعله سبباً للحصول على المنافع الدنيوية والأخروية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ [آل عمران: ٩٦] .



قال السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ١٣٨) في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضى ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدينية كما قال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: ٢٨] ، ﴿وَهْدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ . اهـ .

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٥/ ٤١٤) في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ [الحج: ٢٨] .

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن والربح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] .

وروى الترمذي وغيره عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ، وَالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ» صححه الألباني برقم: (٢٩٠١) في صحيح الجامع

قال الصنعاني - رَحِمَهُ اللَّهُ - : في شرح البلوغ (١/ ٣) : «في هذا دليل على أن



الاستكثار من الحج والعمرة من أسباب جلب الرزق والغنى ودفع الفقر ، وهناك عبادات كثيرة تجلب للعبد الرزق وتدفع عنه الفقر فمن ذلك الاستغفار قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح: ١٠-١٢] .

ومن ذلك أيضاً صلة الأرحام وبر الوالدين فقد جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مِنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » . اهـ .

بركة ماء زمزم:

لقد شُوهِد من بركة ماء زمزم ما لا يخفى على أحد من الناس، وصار خبره على مسمع ومرأى من العالمين، إذ جعل الله البركة في ذاته فجعله شفاء للناس من الأدواء والأسقام، وجعله طعاماً لمن لم يجد الطعام كما سيأتي في الحديث، ومن بركة هذا الماء أن نفعه صار شاملاً لأهل الحرم وغيرهم، ويؤخذ منه إلى أصقاع المعمورة فلم ينفد ولم ينقطع، فهو هزمة جبريل - عَلَيْهِ السَّلَام - وسقيا الله لإسماعيل - عَلَيْهِ السَّلَام -، وفيه خصائص ومميزات ليست في غيره من المياه، فهو خير ماء وجد على وجه الأرض، فربك يخلق ما يشاء ويختار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

فقد روى الطبراني عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « خَيْرُ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ زَمْزَمَ فِيهِ طَعَامٌ مِنَ الطَّعْمِ وَشِفَاءٌ مِنَ السُّقْمِ، وَشَرُّ مَاءٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَاءُ بَوَادِي بَرْهُوتٍ بَقِيَّةُ حَضْرَمَوْتَ كَرَّجُلِ الْجَرَادِ مِنَ الْهُوَامِّ يُصْبِحُ يَتَدَفَّقُ وَيُمْسِي لَا بَلَالَ بِهَا » . حسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٥٦) .

وقد كان في بادئ الأمر أن هاجر - عَلَيْهِ السَّلَام - ظنت أنه لا يكفي إلا لها



عجائب وأسرار

وولدها فيها يظهر، ولهذا حقته بكفيها ويظهر هذا من قولها للذين أرادوا مجاورتها: « لا حق لكم في الماء » ، لكنهم انتفعوا به جميعاً وانتفع منه الجميع ببركته.

ومن بركته أنه يقوم مقام الطعام والدواء لما روى البزار عن أبي ذرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « زَمْزَمُ طَعَامٌ طُعِمَ وَشِفَاءٌ سَقِمٌ » . صححه الألباني برقم : (٣٥٧٢) في صحيح الجامع .

وروى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « مَاءُ زَمْزَمَ ، لِمَا شَرِبَ لَهُ » . صححه الألباني برقم : (٥٥٠٢) في صحيح الجامع .

وتفسيره في حديث ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « ماء زمزم لما شرب له إن شربته تستشفى شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله وهي هزمة جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وسقيا الله إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ » رواه الدارقطني والحاكم وحسنه الألباني في صحيح الترغيب برقم (١١٦٤)

وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقِيَهُ عِنْدَ الْبَيْتِ فَقَالَ « مَتَى كُنْتَ هَاهُنَا » . قَالَ : قُلْتُ : قَدْ كُنْتُ هَاهُنَا مُنْذُ ثَلَاثِينَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ قَالَ « فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُكَ » . قَالَ قُلْتُ مَا كَانَ لِي طَعَامٌ إِلَّا مَاءُ زَمْزَمَ . فَسَمِنْتُ حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ^(١) بَطْنِي وَمَا أَجِدُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةً^(٢)

(١) قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى مُسْلِمَ - (٢٣٦/٨) قَوْلُهُ : (حَتَّى تَكَسَّرَتْ عُنُقُ بَطْنِي) يَعْنِي انْتَنَتْ لِكثْرَةِ السَّمَنِ وَأَنْطَوَتْ

(٢) قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ عَلَى مُسْلِمَ - (٢٣٦/٨) . قَوْلُهُ : (وَمَا وَجَدْتُ عَلَى كَبِدِي سُخْفَةً جُوعَ) هِيَ بَفَتْحِ السَّيْنِ الْمُهْمَلَةِ وَضَمِّهَا وَإِسْكَانِ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ ، وَهِيَ رِقَّةُ الْجُوعِ وَضَعْفُهُ وَهُزَالُهُ . اهـ .



جُوعٌ قَالَ « إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامٌ طُعْمٌ » .

قال المناوي - رَحِمَهُ اللهُ - : في فيض القدير (٤ / ٨٥): (زمزم) وهي كما قال المحب الطبري بئر في المسجد الحرام بينها وبين الكعبة ثمان وثلاثون ذراعا سميت به لكثرة مائها أو لزمنة جبريل وكلامه عندها أو لغير ذلك.

(طعام طعم) أي: فيها قوة الاغتذاء الأيام الكثيرة لكن مع الصدق كما وقع لأبي ذر بل كثر لحمه وزاد سمنه يقال هذا الطعام طعم أي يشبع من أكله، ويجوز تخفيف طعم جمع طعام كأنه قال إنها طعام أطعمه كما يقال أصل أصلا وشيد أشياد والمعنى أنه خير طعام وأجوده ذكره كله الزمخشري.

(وشفاء سقم) أي حسي أو معنوي مع قوة اليقين وكمال التصديق ولهذا سن لكل أحد شربه أن يقصد به نيل مطالبه الدنيوية والأخروية». اهـ..

وقال - رَحِمَهُ اللهُ - في فيض القدير (٥ / ٥١٥): (ماء زمزم) الذي هو سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرا وأحبها إلى النفوس وهزمة جبرائيل وسقيا إسماعيل.

(لما شرب له) لأنه سقيا الله وغيائه لولد خليله فبقي غياثا لمن بعده فمن شربه بإخلاص وجد ذلك الغوث وقد شربه جمع من العلماء لمطالب فنالوها قال الحكيم : هذا جار للعباد على مقاصدهم وصدقهم في تلك المقاصد والنيات لأن الموحد إذا رابه أمر فشأنه الفزع إلى ربه فإذا فزع إليه استغاث به وجد غياثا وإنما يناله العبد على قدر نيته قال سفيان الثوري : إنما كانت الرقي والدعاء بالنية لأن النية تبلغ بالعبد عناصر الأشياء والنيات على قدر طهارة القلوب وسعيها إلى ربها وعلى قدر العقل والمعرفة يقدر القلب على الطيران إلى الله فالشارب لزمن على ذلك». اهـ..

وقد كان بعض السلف يشربه بنية الري ليوم العطش الأكبر جاء ذلك



عن ابن المبارك كما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه ومعنى هزيمة جبريل أي غمزه بعقب رجله^(١).

قال ابن بطلال - رَحِمَهُ اللهُ - : في شرح صحيح البخاري (٣١٦ / ٤) : « وقال وهب بن منبه : تجدها في كتاب الله . يعني : زمزم شراب الأبرار ، وطعام طعم ، وشفاء من سقم ، ولا تُنَزَّحُ ولا تُذَمُّ ، من شرب منها حتى يتصلع أحدث له شفاء ، وأخرجت منه داء » . اهـ .

ومعنى حتى يتصلع أي يرتوي ويمتلئ جوفه وأضلاعه منه .

قال ابن القيم - رَحِمَهُ اللهُ - في زاد المعاد (٣٥٦ / ٤) : « مَاءُ زَمْزَمَ سَيِّدُ الْمَيَاهِ وَأَشْرَفُهَا وَأَجْلَاهَا قَدْرًا وَأَحَبُّهَا إِلَى النَّفُوسِ وَأَغْلَاهَا ثَمَنًا وَأَنْفُسُهَا عِنْدَ النَّاسِ وَهُوَ هَزْمَةُ جَبْرِيلَ وَسُقْيَا اللَّهِ إِسْمَاعِيلَ » . وَثَبَّتَ فِي « الصَّحِيحِ » عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي ذَرٍّ وَقَدْ أَقَامَ بَيْنَ الْكُعْبَةِ وَأَسْتَارِهَا أَرْبَعِينَ مَا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ غَيْرُهُ فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ » وَزَادَ غَيْرُ مُسْلِمٍ بِإِسْنَادِهِ وَشِفَاءُ سُقْمٍ تَحْسِينُ الْمُصَنِّفِ لِحَدِيثِ مَاءِ زَمْزَمَ لَمَّا شَرِبَ لَهُ وَفِي « سُنَنِ ابْنِ مَاجَهَ » . مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « مَاءُ زَمْزَمَ لَمَّا شَرِبَ لَهُ » . وَقَدْ ضَعَّفَ هَذَا الْحَدِيثَ طَائِفَةٌ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُؤَمَّلِ رَاوِيهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ . وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ أَنَّهُ لَمَّا حَجَّ أَتَى زَمْزَمَ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنَّ ابْنَ أَبِي الْمُوَالِي حَدَّثَنَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدَرِ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ نَبِيِّكَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : « مَاءُ زَمْزَمَ لَمَّا شَرِبَ لَهُ وَإِنِّي أَشْرَبُهُ لَظْمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وَابْنُ أَبِي الْمُوَالِي ثَقَّةٌ فَالْحَدِيثُ إِذَا حَسُنَ وَقَدْ صَحَّحَهُ بَعْضُهُمْ وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ مَوْضُوعًا وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ فِيهِ مُجَازَفَةٌ . اهـ .

(١) انظر فيض القدير للمناوي .



الأمْن في البيت الحرام

لقد من الله عَزَّجَلَّ على المسلمين عامة وعلى أهل مكة خاصة وعلى أهل الحرم على وجه الخصوص بالأمْن التام والسكينة التامة في بيته الحرام، فمن دخله كان آمناً بأمر الله وقدره حتى إن الأمْن فيه شمل الحيوانات والطيور والوحش، فلا يُنفر صيده، ولا يحل اصطياده، ومن أصطاد فيه فعليه جزاء أو كفارة، ومن عاد فينتقم الله منه، ولا يُحمل فيه السلاح على أحد، ولا يُختلى خلاه، ولا يُعضد شجره، ولا تُلَقط لقطته إلا لمنشد، فجعل الله الأمْن ملازماً له من أول بنائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بِّينَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾.

[آل عمران: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَ الْبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ۝١ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش].



تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ .

قال السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ١٣٨): «ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمنا شرعا وقدرًا، فالشرع قد أمر الله رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرًا فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين برهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، ومن جعله حرما أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم». اهـ .

وقال - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٦٥): ﴿ءَامِنًا﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار. ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم، فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام، زاده حرمة وتعظيمًا، وتشريفًا وتكريماً». اهـ ..

وقال البغوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ١٤٦): ﴿وَأَمْنًا﴾ أي مأمنا يأمنون فيه من إيذاء المشركين، فإنهم ما كانوا يتعرضون لأهل مكة ويقولون: هم أهل الله ويتعرضون لمن حوله كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. اهـ

وقال المفسر الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٢/ ٥٢١): «الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْنًا﴾ .



وَالْأَمْنُ : مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ أَمِنَ يَأْمُنُ أَمْنًا وَإِنَّمَا سَأَهُ اللَّهُ أَمْنًا لِأَنَّهُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَعَاذًا لِمَنْ اسْتَعَاذَ بِهِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لَوْ لَقِيَ بِهِ قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ لَمْ يَهْجُهِ وَلَمْ يَعْزُضْ لَهُ حَتَّى يُخْرِجَ مِنْهُ ، وَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنْخَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] اهـ.

تفسير سورة قُرَيْشٍ :

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١ / ٩٣٥) : «قال كثير من المفسرين : إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي : فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم ، واستقامة مصالحهم ، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن ، والصيف للشام ، لأجل التجارة والمكاسب .

فأهلك الله من أرادهم بسوء ، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب ، حتى احترامهم ، ولم يعترضوا لهم في أي : سفر أرادوا ، ولهذا أمرهم الله بالشكر ، فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ (٣) أي : ليوحدوه ويخلصوا له العبادة ، ﴿ أَلَذَىٰ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٤) فرغد الرزق والأمن من المخاوف ، من أكبر النعم الدنيوية ، الموجبة لشكر الله تعالى .

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة ، وخص الله بالربوبية البيت لفضله وشرفه ، وإلا فهو رب كل شيء .. » اهـ .

وقال ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٨ / ٤٩١) : «حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿ لِإِلَافٍ قُرَيْشٍ ﴾ (١) أي : لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمين .

وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمين في أسفارهم ؛ لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان حرم الله ، فمن عَرَفَهُم



احترمهم، بل من صوفي إليهم وسار معهم أمن بهم. هذا حالهم في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد، فكما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ولهذا قال: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١﴾ بدل من الأول ومفسر له. ولهذا قال تعالى: ﴿إِإِلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ «. اهـ.

وكل هذا بفضل الله على هذا البيت وأهله وبركته ليعبدوا الله وهم آمنون ويشكروا الله على هذه النعمة، فإن العبادة لا تتأتى على أكمل وجه إلا مع الأمن التام، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٢﴾ أَلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

أي أن الناس كانوا يتخطفون من حولهم ويحصل لهم القتل والغدر والبغي وأهل الحرم في أمن ودعة، حتى أن الرجل كان يرى قاتل أبيه فلا يجترئ على قتله تعظيماً للبيت وتحقيقاً للأمن فيه.

قال البغوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (٦ / ٢١٥): «قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تغير بعضهم على بعض، ويقتل بعضهم بعضاً، وأهل مكة آمنون حيث كانوا، لحمة الحرم، ومن المعروف أنه كان يأمن فيه الأطباء من الذئاب والحمام من الحداة». اهـ.

وقال الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١٩ / ٦٠١): ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾: «يقول: أو لم نوطئ لهم بلداً حرمنا على الناس سفك الدماء فيه، ومنعناهم من أن يتناولوا سكانه فيه بسوء، وأمنا على أهله من أن يصيبهم بها غارة، أو قتل،



أو سباء». اهـ .

وقال السعدي - رَحِمَهُ اللهُ - (١ / ٦٢٠): «والحال أن كل ما حولهم من الأماكن، قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فَلْيَحْمَدُوا ربهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون. وَلْيَتَّبِعُوا هذا الرسول الكريم، ليتم لهم الأمن والرغد». اهـ ..

أسرار الحجر الأسود:

إن الحجر الأسود الذي يستلمه الحجاج والمعتصرون والطائفون بالبيت ويقبلونه ويشيرون إليه ويكبرون الله عند ذلك هو حجر أنزل من الجنة ولونه أبيض مثل اللبن، ولكن سودته ذنوب بني آدم وخطايا أهل الشرك، وسيأتي يوم القيامة له لسان ينطق وعينان تبصران يشهد لكل من أستلمه بحق وإخلاص.

فقد روى الترمذي عن ابن عباس - رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُمَا - قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم» صححه الألباني برقم: (٦٧٥٦) في صحيح الجامع .

وفي ذلك عبرة لأهل المعاصي للاحتراز منها فإذا كانت الذنوب تؤثر في الحجر الصلد وتسوده، فكيف ستصنع في القلب الضعيف الذي هو مضغة لحم فإنها تجعله أسود مرباداً من باب أولى.

قال العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - رَحِمَهُ اللهُ - بعد إيراده شبهة وهي: إذا كانت سودته يد المشركين فينبغي أن تبيضه توحيد المسلمين: قال «والذي أراه أنا من الجواب أن إبقاء أثر الخطايا فيه - وهو السواد - أبلغ في باب



العبرة والعظة من تغيير ذلك ؛ ليعلم أن الخطايا إذا أثرت في الحجر، فتأثيرها في القلوب أعظم، فيجب لذلك أن تجتنب» انتهى

وقال العز بن جماعة - رَحِمَهُ اللهُ - : «قد رأيت الحجر الأسود أول حجتي سنة ٧٠٨ هـ وبه نقطة بيضاء ظاهرة لكل أحد، ثم رأيت البياض بعد ذلك نقص نقصاً بيناً. انتهى .

وقال ابن خليل: أدركت فيه ثلاثة مواضع بيضاء نقية، في الناحية التي إلى باب الكعبة، إحداها - وهي أكبرها - قدر حبة الذرة الكبيرة، والأخرى إلى جنبها وهي أصغر منها، ثم إنني أتلح تلك النقط فإذا هي كل وقت في نقص. انتهى ما ذكره الأسدي في إخبار الكرام». اهـ. (١)

وروى الترمذي وغيره عن ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فِي الْحَجَرِ «وَاللَّهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ عَلَى مَنْ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ». صححه الألباني رقم : (٧٠٩٨) في صحيح الجامع .

ومن شرف الحجر الأسود أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) استلمه وقبله وبدأ الطواف بالكعبة من جواره، فصار استلامه وتقبيله لمن قدر على ذلك أو الإشارة إليه سنة مستمرة إلى قيام الساعة.

ومن الأخطاء عند بعض الناس أنهم يتمسحون به تبركاً وهذا من الشرك، وكذلك التمسح بالكعبة والمقام والتبرك بهما من الشرك، فإنه لا يشرع استلام الكعبة ولا المقام ولا تقبيلهما فضلاً عن التبرك بهما، أما الحجر الأسود فاستلامه وتقبيله سنة سنّها رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

(١) انظر كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام)، (١/ ٥٣٢-٥٣٣).



قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِلرُّكْنِ: أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْ لَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ فَاسْتَلَمَهُ» رواه البخاري

عجائب في باب الكعبة وميزابها:

أما باب الكعبة فكما هو ظاهر للناظر فإنه مصفح بالذهب، وكذلك ميزابها فإنه مصفح بالذهب نحو خمسين رطلا تقريبا^(١) وهذا من عجائب هذا البيت وعظمته، ويدل ذلك على تعظيم الناس له وحبهم له، بل هو أحب إليهم من الذهب والفضة، فليس هناك شيء أحب إلى قلوب الناس من البيت الحرام حتى المشركون أنفسهم في زمن الجاهلية، فقد كانوا يعظمونه ويطوفون حوله ويخدمونه ويدافعون عنه .

عجائب في كسوة الكعبة :

ومن خصائص بيت الله الحرام أنه مكسي بالثياب الجميلة والنفيسة والثرينة بخلاف غيره من البيوت قديماً وحديثاً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فجعل ذلك ميزة تتميز بها الكعبة المشرفة على غيرها من البنيان.

قال الشيخ عبد المحسن العباد - حَفِظَهُ اللَّهُ - في شرح سنن أبي داود (٢٣ / ٢٥٥).

قوله: (لم يأمرنا فيما رزقنا أن نكسو الحجاره واللبن)^(٢) . باستثناء كسوة الكعبة فقد كانت كسوتها ثابتة، وكانت موجودة قبل الإسلام، وجاء الإسلام وأقرها، وهي مما أقر في الإسلام، وكون الكعبة خصصت بذلك؛ هناك دليل يدل على التخصيص، وهو أنها كانت مكسوة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقر

(١) انظر كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام) (١/ ٤٣٢-٤٣٤).

(٢) يشير إلى حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صححه الألباني .



الكسوة، وقد جاء في حديث فتح مكة: (اقتلوا ابن خطل ولو وجدتموه متعلقاً بأستار الكعبة) اهـ.

ومن عجائب البيت الحرام أن الله سخر له من يعتني به ويكسوه في كل عام بأجمل الثياب وأنفسها وأغلاها ثمناً وهو الديباج والحرير، بل كان الملوك وأصحاب الأموال يتنافسون في كسوة البيت في شتى البلدان في زمن الجاهلية وبعدها، ولما أن بزغ فجر الإسلام ازداد حب الناس وتعظيمهم للبيت لما سمعوا من فضائله وتعظيم الله له في كتابه وفي سنة نبيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٤/ ٢٧٦): «قال ابن جريج: زعم بعض علمائنا أن أول من كسا الكعبة إسماعيل، عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال ابن جريج: وبلغني أن تَبَعًا أول من كساها، ولم تزل الملوك في كل زمان يكسونها بالثياب الرفيعة، ويقومون بما تحتاج إليه من المؤنة تبركاً بذلك». اهـ.

وانظر المزيد في ذكر كسوة البيت الحرام في كتاب (إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام (١/ ٤٣٤).



كنز الكعبة

كنز الكعبة هو مال مدفون فيها من الحلي والذهب والفضة ونحو ذلك مما أهدي إليها في زمن الجاهلية وأقره النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تألفاً لقريش، فقد روى مسلم عن عائشة زوج النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أنها قالت سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُوا عَهْدَ بِجَاهِلِيَّةٍ - أَوْ قَالَ بُكُفَرٍ - لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ ».

وقد همَّ عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في خلافته أن ينفق هذا الكنز في سبيل الله فأشار عليه بعض أصحابه بالترك اقتداءً بالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إذ لم ينفقا كنزها فامتثل ذلك.

فقد روى البخاري عن أبي وائل قال جَلَسْتُ مَعَ شَيْبَةَ عَلَى الْكُرْسِيِّ فِي الْكَعْبَةِ فَقَالَ لَقَدْ جَلَسَ هَذَا الْمَجْلِسَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَدْعَ فِيهَا صَفْرَاءَ ، وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهِ قُلْتُ إِنَّ صَاحِبِيكَ لَمْ يَفْعَلَا قَالَ هُمَا الْمَرَّانِ أَقْتَدِي بِهِمَا.

قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري - (٢٧٦ / ٤) : « رأى عمر أن ما فيها من الذهب والفضة لا تحتاج إليه الكعبة لكثرتة ، فأراد أن يصرفه في منافع المسلمين نظراً لهم وحيطة عليهم ، فلما أخبره شيبه بأن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وأبا بكر لم يتعرضا لذلك وتركاه أمسك وصوب فعلهما ، وإنما ترك ذلك والله أعلم لأن ما جعل في الكعبة وسبل لها يجري مجرى الأوقاف ، ولا يجوز تغيير



الأوقاف عن وجوهها ولا صرفها عن طرقها ، وفي ذلك أيضاً تعظيم للإسلام وحرمانه ، وترهيب على العدو ، وقد روى ابن عيينة عن عمرو ، وعن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : (لو أخذنا ما في هذا البيت ، يعنى الكعبة ، فقسمناه ، فقال له أبى بن كعب : والله ما ذلك لك ، قال : ولم ؟ قال : لأن الله بين موضع كل مال ، وأقره رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) . قال : صدقت) اهـ .

وقال القرطبي في المفهم - (١٠ / ١٤٥) في قوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ؛ هذا الكنز هو المال الذي كان يجتمع مما كان يهدى إلى الكعبة ، وأقر النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذلك المال في الكعبة لليلة التي ذكر ، وهي : مخافة التنفير . وأقره أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ولم يعرض له . ثم إن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - همَّ بقسمته ، فخالفه في ذلك بعض الصحابة ، واحتج عليه : بأن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأبا بكر لم يفعلوا ذلك ، فتوقف .

قلت (القرطبي) : ولا يظن أن هذا الكنز الذي جرى فيه ما ذكرنا أنه يدخل فيه حُلِيُّ الكعبة الذي حُلِّيت به من الذهب والفضة ، كما قد ظنَّ بعضهم ، فإن ذلك ليس بصحيح ؛ لأن حليتها محتبسة عليها ، كحُصرها ، وقناديلها ، وسائر ما يحبس عليها لا يجوز صرفها في غيرها ، ويكون حكم حليها حكم حلية سيف أو مصحف حُبساً في سبيل الله ؛ فإنه لا يجوز تغييره عن الوجه الذي حبس له ، وإنما ذلك الكنز كما ذكرناه ، وكأنه فضلة ما كان يهدى إليها عما كانت تحتاج إليه مما ينفق فيها ، فلما افتتح النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مكة خاف من نفرة قلوب قريش إن هو أنفق في سبيل الله ، كما قال . وذلك : أنهم كانت عاداتهم في ذلك : ألا يتعرضوا له . فأقره النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على ذلك لما ذكرناه ، ثم إنه بقي على ذلك في إمارة أبي بكر وعمر ، ولا أدري ما صنع به بعد ذلك . وينبغي أن يبحث عنه . اهـ .



والذي يظهر أن هذا الكنز لا يزال موجودا في الكعبة ويستخرجه ذو السويقتين في آخر الزمان حين يهدم الكعبة لما روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: « اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة ». حسنه الالباني برقم: (٩٠) في صحيح الجامع

قال المناوي في فيض القدير (١/ ١٥٣): (فإنه لا يستخرج) أي لا يستنبط والاستخراج الاستنباط وهو ما أظهر بعد خفاء.

(كنز الكعبة) أي المال المدفون فيها حين يهدمها حجرا حجرا ويلقي حجارتها في البحر كما جاء في خبر آخر. اهـ.

ولا يتنافى تخريب البيت الحرام مع كونه آمنا، فقد جعله الله آمنا إلى قرب قيام الساعة ثم يهدم ويخرب، ومن ثم تخرب الأرض بعد ذلك ويرجع أهلها إلى الله.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: « يُخْرَبُ الْكَعْبَةُ ذُو السُّوَيْتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ ».

وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كأنِّي به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا».

حراسة كنز الكعبة:

قال الشيخ المؤرخ ابن الغازي المكي الحنفي: «قال الأزرقى في تاريخه (١/ ٢٤٤-٢٤٥) عن مجاهد قال: كان في الكعبة على يمين من دخلها جب عميق، حفره إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل -عليهما السلام- حين رفع القواعد، وكان فيه ما يهدى للكعبة من حلي أو ذهب أو فضة أو طيب أو غير ذلك،



وكانت الكعبة ليس لها سقف، فُسِّق منها على عهد جرهم مال مرة بعد مرة، وكانت جرهم ترتضي رجلاً يكون عليه يحرسه، فبينما رجل ممن ارتضوه عندها، إذ سولت له نفسه، فانتظر حتى إذا انتصف النهار، وقلصت الظلال، وقامت المجالس، وانقطعت الطرق، ومكة إذ ذاك شديدة الحر، بسط رداءه، ثم نزل في البئر فأخرج ما فيها فجعله في ثوبه، فأرسل الله عزَّجَلَّ حجراً من البئر فحبسه حتى راح الناس، فوجدوه فأخرجوه، وأعادوا ما وجدوا في ثوبه في البئر، فسميت تلك البئر الأخسف فلما أن خُسف بالجرهمي وحبسه الله عزو وجل، بعث الله عند ذلك ثعباناً وأسكنه في ذلك الجب في بطن الكعبة أكثر من خمسمائة سنة يحرس ما فيها، فلا يدخله أحد إلا رفع رأسه وفتح فاه، فلا يراه أحد إلا ذعر منه، كان ربما يشرف على جدار الكعبة، فأقام كذلك في زمن جرهم وزمن خزاعة وصدرًا من عصر قريش، حتى اجتمعت قريش في الجاهلية على هدم البيت وعمارتها، فحال بينهم وبين هدمه حتى دعت قريش عند المقام عليه، والنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - معهم وهو يومئذ غلام لم ينزل عليه الوحي بعد، فجاء عقاب فاخطفه، ثم طار به نحو أجباد. اهـ. (١)

قال وذكروا أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وجد في الجب الذي في الكعبة سبعين ألف أوقية من ذهب مما كان يهدى للبيت، وأن علي بن أبي طالب قال: يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حربك فلم يحركه، ثم ذكر لأبي بكر فلم يحركه. اهـ. (٢)

الحكمة من الاجتماع في بيت الله الحرام:

إن من الحكم في اجتماع المسلمين في ذلك المكان المبارك - بعد أداء ما افترض الله والتقرب إليه بسائر القربات وإظهار شعائر الله - هو إظهار

(١) انظر كتاب «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» (١/ ٤٩٧-٤٩٨)

(٢) انظر «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» (١/ ٤٩٩)



الإخوة وتوطيد أواصرها والمحبة في الله، فإن الإخوة والمحبة في الله والاجتماع على عبادة الله مطلب شرعي دعا إليه الشرع وحث عليه، ويزداد ذلك حينما يجتمع المسلمون في أعيادهم وعباداتهم وجمعهم وجماعاتهم، ويشعرون بفضل الإخوة الإيمانية التي بسببها يجتمعون من كل أنحاء العالم لزيارة البيت العتيق، فيحجون ويعتصرون ويطوفون بالكعبة فيدعون الله ويذكرونه بقلوب خاشعة وأعين دامعة ونفوس مطمئنة وجوارح ساكنة، قلوبهم كقلب رجل واحد لا تفرقهم دنيا ولا تشتتهم أحساب وأنساب، قد نبذوا الدنيا وراء ظهورهم، وهم أن يغفر الله ذنوبهم وأن يتقبل أعمالهم.

ويزداد ذلك حينما يجتمع كبارهم وشرفاؤهم، وكبارهم وصغارهم، وأغنياؤهم وفقراؤهم، عربهم وعجمهم، رجالهم ونسأؤهم، كلهم على حد سواء قال تعالى: ﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفُ فِيهِ وَالْبَاءُ﴾ [الحج: ٢٥] ، لا فرق بين أبيض على أسود، ولا عربي على أعجمي إلا بالتقوى، لاسيما والكل يرتدي ثيابا بيضاء إزارا ورداء، فيحس الجميع بأنهم سواسية فيتنافسون بالأعمال الصالحة ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ﴾ (٣٦) [المطففين: ٢٦] ، ويشعرون بوحدة الصف والقوة أمام الأعداء، وترداد الألفة وتقوى رابطة الإخوة، ويحصل الثبات، فيزداد المحسن إحسانا ويرجو المذنب من رب العرش غفرانا، ويتوب المقصر ويصلح ما بينه وبين الله تعالى، ويشعر الجميع بفضل الإسلام وفصل أهل الإسلام وفصل ذلك المكان فيزدادون شكرا للملك العلام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن الحكم إظهار عظمة هذا البيت وإظهار عزة هذا الدين، وإظهار آثار أبينا إبراهيم وإسماعيل - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ، ودوام ذكرهم والصلاة عليهم وكذلك نبينا - عليه الصلاة والسلام - وإظهار سيرته ودعوته وهجرته ونحو ذلك.



والحكم في ذلك كثيرة جدًا ذكرنا أهمها والله أعلم.

تذكر النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وصحابته عند زيارة المسجد الحرام:

إن من فوائد زيارة المسجد الحرام تذكر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وتذكر أعماله وعبادته في ذلك المكان الطيب والتأسي به، وتذكر ما عاناه ولاقاه من كفار قريش في المسجد الحرام من الأذى والتعذيب هو وأصحابه -رضوان الله عليهم-، وتذكر صبره وتحمله الأذى في سبيل هذا الدين وتبليغه، فمن جملة ذلك أنهم وضعوا سلا الجزور على رقبته وهو ساجد عند البيت، وخنقوه حتى كادوا أن يقتلوه، فاعترضهم أبو بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله» فتركوه، وأراد الشقي أبو جهل -لعنه الله- أن يطأ على رقبته وهو ساجد فخذله الله، وسلط عليه جنوداً من جنوده، فرجع القهقري خائفاً مذعوراً، خائباً ذليلاً، فنصر الله رسوله، ومكّنه من البيت الحرام، وأمن البيت وطهره من المشركين حتى صار من شأنه أن لا يطوف به عريان ولا يحج مشرك.

ومن ذلك تذكر صحابته -رضوان الله عليهم- وعباداتهم ومناصرتهم لنبينهم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وما بذلوه في سبيل ذلك من الأنفس والأموال ومفارقة الأوطان والخلان، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الله، ونصرة لنبينهم، وتبليغاً لدين الله حتى وصل إلينا غصاً طرياً بسلام وأمان، بدون كلفة ولا قتال، ولا هجرة ولا سفر، بفضل الله ثم بفضل نبيه وصحابته، فيجب استشعار هذه النعمة وشكرها، وإن من شكر هذه النعمة هو الحفاظ عليها والشكر لمن حملها إلينا وهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصحابته، وذلك باتباع سنتهم، والاقتداء بهم، واقتفاء آثارهم، والدفاع عنهم، والترضي عنهم، وذكر محاسنهم، والكف عما جرى بينهم، فقد أثنى الله عليهم ورضي عنهم ووعدهم بالجنة، وتوعد من نال منهم أو تنقصهم، فمن سبهم فهو ملعون ومن أبغضهم فهو منافق،



ومن أحبه فهو مؤمن، فنشهد الله وملائكته وسائر خلقه أننا نحبهم ونجلهم جميعاً، ونبغض من أبغضهم أو تنقصهم جملة وتفصيلاً، اللهم فارض عنهم، وأنتقم ممن عاداهم، واحشرنا معهم، فإننا نتقرب إليك بحبهم، ونتقرب إليك ببغض من أبغضهم، ونسأل الله أن يرينا عجائب قدرته فيمن نصب العداء لهم.

المسجد الحرام عز للمسلمين:

أعجبتني كلمة قالها عامي بجانبني ونحن ذاهبون إلى الحرم فقال مقولته تلك الجميلة: «الحمد لله الذي جعل المسجد الحرام عزاً للمسلمين، يعتزون به ويعظمونه ويجمعون إليه، ولم يجعل للكفار مكاناً يعتزون به ويجمعون فيه مثل الحرم» اهـ. بمعناه.

وصدق والله، فإن هذه النعمة ينبغي استحضارها، وشكر الله عليها، والمحافظة عليها، ونشر محاسن المسجد الحرام وفوائده وعجائبه بين الناس، فينبغي على كل مسلم أن يعتز بهذا المكان المبارك، وأن يفتخر به، وأن يكثر من زيارته، ويدعو الناس إلى زيارته، ففي ذلك خير كثير فقد جعله الله مرجعاً للإسلام والمسلمين، ومأوى يأوون إليه، ومفرعاً يفرعون إليه بالعبادات لمعاهدة قلوبهم، وتجديد إيمانهم، وتكفير سيئاتهم، ورفع درجاتهم، فكفى بذلك شرفاً وفخراً وعزة، فإن العزة لله ورسوله وللمؤمنين، فيجب على كل مسلم أن يفرح بذلك، وأن يحبه ويحب أهله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

تذكر يوم القيامة عند زيارة البيت:

إن من فوائد زيارة المسجد الحرام ومشاهدة ذلك الزحام، هو تذكر يوم العرض الأكبر يوم الجمع بين يدي الملك العلام، حينما يجمع الله الأولين



عجائب وأسرار

والآخرين في صعيد واحد على أرض بيضاء عفراء ليس فيها علم لأحد على مختلف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، فالسفر إلى بيت الله الحرام، يذكر بالسفر إلى الملك العلام.

فعند رؤية الحجاج والمعتمرين والطائفين وهم يرتدون ثياب الإحرام رئيسهم ومرؤوسهم، قد تركوا أوطانهم، وفارقوا أهاليهم وأولادهم، واجتمعوا في ذلك المكان، يتذكر الرائي وقوفه بين يدي الله، وعرض العباد على الله في أرض المحشر، حفاة بدون نعال، عراة بغير ثياب، غرلاً بدون ختان، بهما ليس معهم شيء، كما خلقهم الله تعالى، قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

هذا وإن الجمع في الحرم - وإن بلغ الملايين من الناس - لكنه قليل بالنسبة ليوم الجمع الأكبر في أرض المحشر، فإنهم يأتون أكثر من عدد الحصى لا يحصيهم إلا الله من أول ذرية آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

فيوم الجمع الأكبر هو يوم القيامة، وما هذه الجموع التي حول بيت الله الحرام إلا تذكيراً بيوم الجمع الأكبر، وامتداداً إليه، وزاداً لذلك اليوم، ﴿وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ كما أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ



وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ [البقرة: ١٩٧].

وثياب الإحرام أيضاً يذكر بالموت ، فقد حث النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على الإكثار من ذكر الموت كما عند الترمذي وابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « أَكْثَرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ ، يَغْنِي الْمَوْتَ » صححه الألباني برقم : ١٢١٠ في صحيح الجامع .

ملاحظات:

إن مما أثار استغرابي وزاد اعجابي أثناء رؤيتي لزوار بيت الله الحرام أن أكثرهم أعاجم رجالاً ونساءً، وأن العرب المسلمين قلة قليلة بالنسبة للأعاجم بل يكادون يعدون بالأصابع، ما أدري هل يزورون البيت في وقت دون وقت أم أنهم زاهدون فيه، بل سمعت غيري يشكو من قلة العرب الزائرين للبيت، وكان الأولى أن يكونوا أكثر من غيرهم؛ لأنهم أقرب إلى بيت الله الحرام، وسفرهم إليه أقل كلفة من غيرهم، لكنَّ التقصير حاصل عند الكثير منهم في زيارة بيت الله الحرام، بل أخبرنا أن من الناس من يسكن في المملكة، بل بعضهم في مكة ولم يحج ولم يعتمر! وهذه غفلة شديدة، وبُعد واضح، فإن الحجة في حق هؤلاء أكبر، والإثم عليهم أعظم، فإنه يؤثم من كان قادراً على الحج أو على العمرة ولم يعتمر ولم يحج ولو كان بعيداً عن بيت الله الحرام مادام أنه قادر، فكيف بمن كان قريباً من البيت، ولقد ندم أناس كثيرون كانوا قريباً من البيت فلم يحجوا، فلما أخرجوا من المملكة أيام حرب الخليج عضوا على أنامل الندم، وبعضهم مات ولم يحج والله المستعان.

فيجب الحج والعمرة في حق من كان قادراً على الفور، ولا يجوز التراخي والتأخير، لاسيما العمرة فإن تكاليفها أقل من كلفة الحج، فلا يعذر من كان



قادرًا على العمرة ولم يعتمر، سواء كان في مكة أو في خارجها، ولو لم يتمكن من الحج فإنه يجب عليه أن يأتي بها يستطيع لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال تعالى في وجوب الحج والعمرة على المستطيع: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] والأمر يقتضي الوجوب على الفور.

فينبغي على العرب المسلمين أن يكونوا أكثر معاهدة لبیت الله الحرام؛ لأنهم جيران البيت، وهم أهل اللغة، والنبی (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بُعث منهم، وأرسل بلغتهم، وأنزل القرآن بلغتهم، الأمر الذي يجعل مناسك الحج والعمرة أيسر عليهم من غيرهم، وإلا فلا فرق بين عربي على أعجمي في دين الله، لكن الهداية بيد الله يهدي من يشاء، والسعيد من وفقه الله، واستعمله بطاعته، وإلا فالحقيقة فإن الأعاجم المسلمين أحرص على العبادات وعلى معاهدة البيت من العرب المسلمين، بل وترى العجب في إقبالهم وعبادتهم وبكائهم واستقامتهم، ولا شك أنه يوجد من هذا الصنف من العرب المسلمين لكنهم قليل بالنسبة لغيرهم، فنسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين عربهم وعجمهم، وأن يجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم.



فضل اللغة العربية

إن للغة العربية فضلاً على غيرها من اللغات، فقد فضلها الله على غيرها فأُنزل القرآن الكريم بها، وُبُعْث نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عربياً وهي لغة أهل الجنة، فينبغي الاهتمام بها وتعلمها والإعراض عن غيرها مما لا حاجة إليها.

فالشاهد أن الدين ميسر لأهل العربية أكثر من غيرهم، فيأمكن المجيد للعربية أن يحفظ القرآن والسُّنة، ويتعلم أحكام الدين أسرع من غيره، فنحث الأعاجم على تعلم اللغة العربية، بل منها ما هو فرض واجب عليهم مما له علاقة بالفرائض والواجبات، ونذكر المسلمين العرب بنعمة العربية، ونحثهم على شكر هذه النعمة، ويكون باغتنامها في تعلم دين الله، وأداء فرائض الله، وحفظ كتاب الله وسُنَّة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

فإنك أيها العربي تشعر بهذه النعمة حينما ترى وتسمع الأعاجم وهم يحاولون النطق باللغة العربية بصعوبة حين طوافهم، وأداء مناسك الحج والعمرة، فإنهم يتلكؤون ويتكلمون ببعض الكلمات بمشقة أثناء الدعاء وأداء الأذكار وتكثر الأخطاء عندهم، وربما وقعوا في كثير من المخالفات وخطئهم مغفور إن شاء الله؛ لأن الله تعالى وعد أنه لا يؤاخذ المخطئ والناسي والجاهل، لكن الحجة قائمة عليك أيها العربي أكثر من غيرك؛ لأنك فهمت دين الله أكثر من الأعجمي وتستطيع أن تتعلم دينك أو تسأل عنه بكل سهولة، فلا عذر لك إن قصرت أو أعرضت والله المستعان.



التعظيم الشرعي للبيت

إن من تعظيم الله تعظيم ما عظمه، وتحقير ما حقره، قال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ [الحج: ٣١ - ٣٣].

فإن مما عظمه الله هو بيته الحرام وما فيه من الشعائر العظام، فيجب تعظيمه كما أراد الله ورسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بلا غلو ولا إفراط، ولا بالبدع والمخالفات وارتكاب الشراكيات، فإن المخالفة عند البيت الحرام أعظم من غيره قال تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ [الحج: ٣١ - ٣٣].

فلا يجوز التمسح والتبرك بجدران البيت وأحجاره وأثاثه، وإنما يتبرك العبد بالعبادة فيه، من صلاة وذكر وقراءة قرآن وبالطواف والسعي بين الصفا والمروة وبالإخلاص لله والمتابعة لرسوله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فمن أحدث فيه شيئاً لم يفعله النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فهو فاسد ومردود على صاحبه لما روى الإمام البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ» .

وفي رواية لمسلم : «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» .



فإنه ما من خير إلا ودلنا عليه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فهذه الأفعال والمحدثات التي أحدثها بعض الناس من التبرك والبدع لو كانت خيرًا لسبقنا إليه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فإن خير الهدي هديه.

وإليكم بعض البدع والمنكرات التي تُرتكب في الحرم بعضها تصدر من الجاهل والبعض من أهل الأهواء والبدع.

مخالفات ومنكرات في الحرم:

إن من المؤسف أنه يوجد في بيت الله الحرام بعض المخالفات والمنكرات من بعض الزائرين والمعتمرين، وهذا يعود إلى أمرين اثنين:

أحدهما: جهل كثير من الناس بهذه الأمور، لا سيما الأعاجم.

ثانيهما: بسبب أهل البدع وأهل الزيغ والضلال ومناهجهم المنحرفة التي يقررونها للناس، وفتاواهم المخالفة لشرع الله، وإحداث بدع ما فعلها نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ولا صحابته رضوان الله عليهم.

فمن هذه المنكرات:

التبرك الشركي:

ومنه التمسح بجدران الكعبة والمقام والحجر الأسود والتبرك بذلك وهذه من الأمور الشركية وقد تصل بصاحبها إلى حد الشرك الأكبر إذا اعتقد أنها تجلب البركة بنفسها، ومن اعتقد أنها سبب للبركة فهو شرك أصغر، وهذه من أعمال الصوفية التي ضللوا على الناس بها، وغروهم بفعلها، وإنما تكون البركة بالبيت بعبادة الله فيه والعمل بالسنة.



دعاء غير الله:

ومن الشرك بالله دعاء الكعبة من دون الله، أو اعتقاد أنها تنفع وتضر من دون الله، والعياذ بالله — وإنما جعلها الله قبلة يتجه الناس إليها في عباداتهم ووسيلة يختبر الله بها عباده وليست هي المقصودة بذاتها قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن الشرك الأكبر دعاء النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وإن كان أكثر ما يحصل هذا عند قبره — ولكن ذكرنا هذا هنا من باب أن الشيء بالشيء يذكر، فدعاء غير الله شرك، سواء كان المدعو حجراً أو شجراً أو قبراً أو نبياً أو ملكاً أو ولياً.

الاختلاط والتبرج:

ومن المخالفات التي تحصل في الحرم اختلاط الرجال بالنساء، ومزاحة النساء للرجال في أماكنهم، وتبرج كثير من النساء بإظهار بعض مفاتهن كالوجه والكفين، وقد نهى الله عن اختلاط الرجال بالنساء وأمر أمهات المؤمنين بالحجاب وغيرهن من باب أولى.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأحزاب: ٥٩].
وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣].



فقد روى البخاري ومسلم عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ: «الْحَمُو الْمَوْتُ».

وروى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَخْطُبُ يَقُولُ: «لَا يَخْلُونَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ وَلَا تُسَافِرُ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ». فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَةً وَإِنِّي اكْتَسَبْتُ فِي غَزْوَةٍ كَذَا وَكَذَا. قَالَ «انْطَلِقْ فَحِجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ».

وروى الترمذي عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا لَا يَخْلُونَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ» صححه الألباني برقم: ٢٥٤٦ في صحيح الجامع.

والأحاديث كثيرة في تحريم الاختلاط والخلوة والتبرج والسفور وسفر المرأة بدون محرم سواء في الحج أو في غيره لعموم الأدلة، ولا يوجد استثناء أو تخصيص للحج أو لغيره.

فبإمكان المرأة أن تحج وتطوف وتسعى بجانب محرمها بعيدة عن مزاحمة الرجال وهي محجبة لتفوز بالأجور العظيمة، وتسلم من الآثام، بل وترجع من حجها كيوم ولدتها أمها، وهناك مصليات خاصة بالنساء والحمد لله، أما والحال ما ذكر من التبرج والاختلاط بالرجال ومزاحمتهم، فإنها تأثم هي ومحرمها إن قصر وكان راضياً، وهكذا كل من ارتكب المنكرات في البيت الحرام، فإنه يرجع بالأوزار ولا يرجع كيوم ولدته أمه، إلا من كان جاهلاً بذلك، أو لم تبلغه الحجة كالأعاجم فإنه يعذر إن شاء الله لأدلة العذر بالجهل، أما من علم بحرمة هذه المخالفات فإنه لا يعذر ولا يرجع كيوم ولدته أمه وإن



أفتاه من أفتاه ما دامت الفتوى تخالف الأدلة، فإن شرط الرجوع بالمغفرة عدم ارتكاب المعاصي فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : « مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ ».

والتبرج والاختلاط من الفسوق، فنسأل الله أن يوفق الحكومة السعودية بتوجيه الناس، وتعليمهم دينهم، واتخاذ موجهين ومرشدين وواعظين وخطباء لهذا الشأن، وإن كانت بعض الأمور قد خرجت عن السيطرة، لكن لابد من تكريس الجهود في دعوة الناس وتعليمهم بالنصائح والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وإلقاء المواعظ والدروس بعد الصلوات، ونشر الكتب والرسائل المطويات والإذاعات، ومع الأيام سيفهم الناس ويلتزمون بهذه الأمور بإذن الله.

ومنها: تصوير ذوات الأرواح:

ومن المعاصي التي شاهدناها في الحرم من بعض الناس تصوير ذوات الأرواح، فقد جاء الوعيد بذلك باللعن والعذاب الشديد، ففي الصحيحين عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : « أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » أي يشبهون بخلق الله بهذه الصور.

وجاء في البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال : سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

وفي البخاري عن أبي جحيفة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) « لعن المصورين » والأحاديث في ذلك كثيرة. وللعلامة ابن باز - رَحِمَهُ اللَّهُ - رسالة طيبة في تحريم التصوير بكافة أنواعه: الفتوغرافي والشمسي والرسم والنحت



وغيره، وكذلك للعلامة الوادعي - رَحْمَةُ اللَّهِ - رسالة في ذلك.

فإن تصوير ذوات الأرواح ذريعة إلى الشرك، فإن قوم نوح عبدوا الأصنام بسبب تلك الصور التي صورها لأولئك الصالحين فعبدت من دون الله.

وتصوير ذوات الأرواح في الحرم ذريعة إلى الرياء، فإن كثيراً من الحجاج والمعتمرين يجعل من يصوره وهو بإحرامه أو وهو بجانب الكعبة من أجل أن ينشر هذه الصورة إلى أهله أو يجعلها خلفية في جواله، وبهذا يكون قد فتح على نفسه باباً عظيماً من أبواب الرياء، بالإضافة إلى معصية التصوير، ولا يسلم إلا من سلمه الله، فخير لهذا الصنف أن يجلس في بيته ولا يذهب يرائي الناس بعمله، فيتجشم الصعاب ويقطع المسافات الطويلة وينفق الأموال الطائلة ولم يصل إلى ذلك المكان إلا بشق الأنفس وربما كانت فرصة العمر لم تيسر له غيرها ثم يحبط عمله بتلك المعصية والعياذ بالله.

فننصح كل مسلم بتقوى الله في الحرم وفي غيره، ومن التقوى ترك هذه المعاصي، كما ننصح بإخلاص العمل لله، وإخفاء العمل قدر المستطاع، فإن العمل إذا كان في ديوان السر فإنه في مأمن من الرياء بإذن الله تعالى.

ومن المخالفات: عدم تسوية الصفوف عند الصلاة؛

ومن القصور الذي يحصل من كثير من الناس في الحرم عدم تسوية الصفوف، وعدم إلزاق الكعب بالكعب، وقد جاء الأمر بتسوية الصفوف وجاء الوعيد في مخالفة هذه السُّنة.

فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ حَتَّى رَأَى أَنَا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا فَقَامَ حَتَّى كَادَ يُكَبِّرُ فَرَأَى



عجائب وأسرار

رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ مِنَ الصَّفِّ فَقَالَ « عِبَادَ اللَّهِ لَتَسُوْنَ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوْهِكُمْ ».

وروى أبو داود وغيره عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: « أَقِيمُوا الصُّفُوفَ فَإِنَّمَا تَصْفُونَ بِصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ وَحَازُوا بَيْنَ الْمَنَاقِبِ وَسَدُّوا الْخُلَلَ وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ وَلَا تَذَرُوا فُرْجَاتَ لِلشَّيْطَانِ وَمَنْ وَصَلَ صَفًا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَ صَفًا قَطَعَهُ اللَّهُ عِزُّ وَجَلٌّ » قال الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: (١١٨٧) في صحيح الجامع

وروى البخاري ومسلم عن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ » وفي رواية للبخاري: « سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ »

والأدلة كثيرة في الأمر بتسوية الصفوف، والأمر يقتضي الوجوب.

ومنها: عدم اتخاذ سترة عند الصلاة:

ومن القصور الحاصل هناك التساهل بالسترة، وقد جاء الأمر بها، ولازم عليها نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في سفره وحضره، وجاء وعيد شديد في حق من مرَّ أمام المصلي، والحكم عام في الحرم وفي غيره ولا دليل على التخصيص.

فقد روى الحاكم عن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَا تُصَلُّوا إِلَّا إِلَى سُتْرَةٍ ، وَلَا تَدْعُ أَحَدًا يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَإِنْ أَبَى فَقَاتِلْهُ ، فَإِنَّ مَعَهُ الْقَرِينَ » وصححه الألباني في صفة الصلاة.

فإن قال قائل يرخص في ترك السترة في المسجد الحرام لوجود المشقة، قيل له: الأدلة عامة في المسجد الحرام وفي غيره لعموم الأدلة، ولا دليل



على التخصيص، بل قد كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يداوم على السترة في سفره وحضره وفي المسجد الحرام وغيره، وبإمكان المصلي أن يتخذ سترة في الحرم أو يصلي في منأى عن المارة بدون مشقة.

قال البخاري - رَحِمَهُ اللَّهُ - (باب السترة بمكة وغيرها).

حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ الْحَكَمِ ، عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ فَصَلَّى بِالْبَطْحَاءِ الظُّهَرِ وَالْعَصْرِ رَكَعَتَيْنِ وَنَصَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَنَزَةً وَتَوَضَّأَ فَجَعَلَ النَّاسُ يَتَمَسَّحُونَ بِوَضُوئِهِ

الشاهد قوله: « وَنَصَبَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَنَزَةً » وهي عصا في أسفلها حديدة اتخذها سترة.

وأعظم من هذا مرور النساء أمام المصلين، فإن مرور المرأة أمام المصلي يبطل الصلاة.

لما روى البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ وَيَقِي ذَلِكَ مِثْلُ مُؤَخَّرَةِ الرَّحْلِ »

ومعنى يقطع الصلاة أي قطع بطلان وليس قطع نقصان، والمرأة التي تقطع الصلاة قطع بطلان هي المرأة البالغة، أما الصغيرة مرورها أمام المصلي لا يبطل الصلاة وإنما ينقص من أجر المصلي إن لم يدفعها، والكلب الذي يقطعها هو الكلب الأسود لأنه شيطان كما في صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

القول في الحرم المدني كالقول في الحرم المكي إلا أن هناك بعض الخصائص:

لا شك أن الحرم المدني والمسجد النبوي هو أفضل مكان بعد المسجد



الحرام، ومن فضائله أن الصلاة فيه بألف صلاة فيها سواه، وهو مستقر النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ومنطلق دعوته، ومكان موته وقبره، ومهبط الوحي من ربه، ومكان الهجرة وباب النصر، منه انتشر الدين، وقويت شوكة المسلمين، وكُسرت شوكة المشركين، وكبت الله المنافقين.

فالقول في المسجد النبوي كالقول في المسجد الحرام في الفضل من حيث التعظيم والبركة والسكينة والطمأنينة ومضاعفة الأجور، إلا أن لكل منهما خصائص يتميز بها عن الآخر، فميزة المسجد الحرام أن الصلاة فيه أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه، بينما المسجد النبوي الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه. ومنها: أن المسجد الحرام يتميز على المسجد النبوي بوجود الكعبة فيه، وإقامة مناسك الحج والعمرة، ووجود ماء زمزم وأنه أول بيت وضع للناس، وغير ذلك من الخصائص والفضائل وهي مدونة في كتب أهل العلم في ذكر فضائل الحرمين.

ومن العجائب التي لفت انتباهي حينما سافرت من مكة إلى المدينة، أني تذكرت هجرة النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وتعجبت من المسافة التي قطعها النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من مكة إلى المدينة على الأقدام، وهي مسافة طويلة تقطعها السيارة بسرعة بأربع ساعات، ويقدر قطعها على الأقدام بما يقارب عشرة أيام، بالإضافة إلى ما حصل للنبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من المطاردة التخويف والتهديد بالقتل، يتضح ذلك جلياً لكل ذي لب ما حصل للنبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من الأذى والأتعاب والأسفار والخوف في سبيل هذا الدين، ويستشعر المسلم هذه النعم التي أنعم الله بها علينا من سهولة الأسفار وسرعة المواصلات وأمن الطريق ووصول الدين إلينا بسلام وأمان، فله الحمد والمنة، ونسأله المزيد من فضله، وأن يديم علينا نعمه، وأن يوفقنا لشكره عليها.



فضل العناية بالحرمين

إن الاعتناء ببيوت الله عموماً وبالحرمين خصوصاً لمن أفضل القربات إلى رب العالمين - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، ولقد شهد الله لمن قام بالعناية بها وبنائها وتنظيفها بالإيمان والرجولة والخوف من الله واليوم الآخر، وشهد لهم بالإيمان والهداية، قال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا لُئْلِهِمْ تَحْرَهُ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۖ وَالْأَبْصَارُ ۚ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۚ ﴾ [التوبة: ١٨] .

قال المفسر السعدي - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١/ ٥٦٩): «أي: يتعبد لله ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ عظمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. ﴿ أذِنَ اللَّهُ ﴾ أي: أمر ووصى ﴿ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكنسها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها من المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم



وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوبا عند أكثر العلماء، أو استحبابا عند آخرين». اهـ.

ولقد رأينا خدمة عجيبة واعتناءً عظيماً للحرمين من قبل الحكومة السعودية - وفقها الله - من حيث النظافة والعمران والأجهزة والبنيان والتوسعات، وكل عام وهي في ازدياد، فيشكرون على ذلك، ونبشر القائمين بخدمة الحرمين الشريفين وسائر بيوت الله تعالى بحديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ - أَوْ شَابًّا - فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلَ عَنْهَا - أَوْ عَنْهُ - فَقَالُوا مَاتَ. قَالَ: «أَفَلَا كُنْتُمْ أَذْنَتُمُونِي». قَالَ فَكَانَتْهُمْ صَغُرُوا أَمْرَهَا - أَوْ أَمْرَهُ - فَقَالَ: «دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ». فَدَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ». متفق عليه.

ومعنى تَقُمُّ المسجد أي تكنسه وتنظفه وترفع القمام منه.

الشاهد أن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عظم أمرها وأعاد الصلاة عليها ودعا لها بسبب اعتنائها بالمسجد.

نسأل الله أن يحفظ الحرمين الشريفين والقائمين عليه، وأن يدفع عنا وعنهم مكر الماكرين وكيد الكائدين، وأن من أراد بهما سوءاً أن يجعل كيده في نحره، وأن يفشل خططه، وأن يجمع كلمة المسلمين، وأن يوفقهم للدفاع عن هذين المسجدين العظيمين، كما نسأله - سبحانه - أن يخلص المسجد الأقصى من أيادي اليهود الغاصبين، وأن ينصر الإسلام والمسلمين، وينصر من نصر



الدين، وأن يخذل من خذل الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،
وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وهذه عجالة مسافر تم الفراغ منها يوم الاثنين الموافق ٢٥ / جمادى الأولى
لعام ١٤٤١ في الحرم المدني، وتم تهذيبها والتعديل والإضافة فيها في مدينة
رداع يوم الأربعاء الموافق ٢٤ / من ذي القعدة لعام ١٤٤١ هـ.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن ينفع بها الإسلام والمسلمين ، وأن
يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يجعلها زاداً لمن قرأها، وسبباً لزيارة بيته
العظيم، سبحانه اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب
إليك.

كتبه / أبو عبد الرحمن

موفق بن أحمد بن علي الفضلي العودي

اليمن / رداع / مسجد التوحيد



فَهْرِسْتَان



فَهْرِسْتَن

- ٥..... مقدمة الشيخ طارق البعداني - حفظه الله -
- ٦..... مقدمة الشيخ طارق البعداني - حَفِظَهُ اللهُ -
- ٨..... مقدمة الشيخ عبد الحميد الحجوري - حَفِظَهُ اللهُ -
- ٩..... مقدمة الشيخ عدنان المصقري - حَفِظَهُ اللهُ -
- ١٣..... سبب تأليف الرسالة :
- ١٥..... قصيدة بعنوان (الشوق العميق إلى بيت الله العتيق)
- ١٦..... معاني بعض الكلمات :
- ١٧..... عظمة رب البيت
- ١٩..... عظمة البيت
- ٢٣..... زيارة البيت وتعظيمه فيه قوام الدنيا والدين :
- ٢٤..... تعظيم الله ورسوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للبيت
- ٢٤..... قصة الذبيح إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ :
- ٢٩..... قصة هاجر وابنها - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - في ذلك الوادي :
- ٣٤..... إرشاد الخليل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إلى مكان البيت :
- ٣٧..... بناء إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ للبيت :
- ٤١..... حفظ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - للبيت :
- ٤٣..... تخريب البيت في آخر الزمان



فشل تبّع في هدم الكعبة المشرفة وما ترتب على ذلك من عجائب . ٤٦

قصة أصحاب الفيل ٥٠

الطواف بالبيت: ٥٧

الكعبة قبلت المسلمين ٥٩

الكعبة أول بيت وضع للعبادة: ٦٠

سكينة البيت: ٦٢

اصطفاء مكة: ٦٥

طهارة البيت: ٦٩

أسماء مكة المشرفة ٧٢

سبب تسميتها (مكة) : ٧٢

وفي تسمية « مكة » أربعة أقوال : ٧٣

* سبب تسمية مكة بـ (بكة): ٧٤

* سبب تسمية مكة بـ (أم القرى): ٧٤

أسماء الكعبة المشرفة ٧٦

من أسماء الكعبة: البيت الحرام: ٧٦

والبيت العتيق: ٧٦

وأول بيت: ٧٦

* سبب تسمية البيت بالكعبة: ٧٦

* سبب تسمية الكعبة بالبيت الحرام: ٧٧

* سبب تسمية الكعبة بالبيت العتيق: ٧٨

* سبب تسمية البيت الحرام بـ (أول بيت): ٧٩



- هل بيت الله الحرام أول بيت بني في الأرض؟: ٨١
- عدد بناء الكعبة المشرفة: ٨٣
- وضع مكة وموقعها: ٨٤
- فوائد زيارة البيت: ٨٥
- أسرار السعي بين الصفا والمروة: ٩٠
- لبيك اللهم لبك** ٩٢
- مشروعية التلبية ٩٢
- معنى التلبية والحكمة منها: ٩٢
- دعوات أبينا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند البيت: ٩٤
- وقفات مع قول إبراهيم ﴿فَأَجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾** ٩٩
- شوق الناس إلى زيارة البيت والتردد عليه: ١٠٢
- زيارة البيت من أسباب الأرزاق ونفي الفقر: ١٠٣
- بركة ماء زمزم: ١٠٥
- الأمن في البيت الحرام** ١٠٩
- تفسير سورة: ﴿قُرَيْشٍ﴾ ١١١
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ ١١٢
- أسرار الحجر الأسود: ١١٣
- عجائب في باب الكعبة وميزانها: ١١٥
- عجائب في كسوة الكعبة: ١١٥
- كنز الكعبة** ١١٧
- حراسة كنز الكعبة: ١١٩



- الحكمة من الاجتماع في بيت الله الحرام: ١٢٠
- تذكر النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وصحابته عند زيارة المسجد الحرام: ١٢٢
- المسجد الحرام عز للمسلمين: ١٢٣
- تذكر يوم القيامة عند زيارة البيت: ١٢٣
- ملاحظات: ١٢٥
- فضل اللغة العربية** ١٢٧
- التعظيم الشرعي للبيت** ١٢٨
- مخالفات ومنكرات في الحرم: ١٢٩
- فمن هذه المنكرات: ١٢٩
- التبرك الشرعي: ١٢٩
- دعاء غير الله: ١٣٠
- الاختلاط والتبرج: ١٣٠
- ومنها: تصوير ذوات الأرواح: ١٣٢
- ومن المخالفات: عدم تسوية الصفوف عند الصلاة: ١٣٣
- القول في الحرم المدني كالقول في الحرم المكي ١٣٥
- فضل العناية بالحرمين** ١٣٧
- الفهرس ١٤١